من مراحل عمر الإنسان [الشيخوخة]
في القرآن الكريم

(دراســـــــــة موضـــوعيـــة)

د. فلوة بنت ناصر بن حمد الراشد

بقسم الدراسات الإسلامية دأستاذ التفسير وعلوم القرآن المساع

كلية التربية للبنات بالرياض

<u>ملخص البحث</u>

ازداد الاهتمام في السنوات الأخيرة بمرحلة الشيخوخة، سواء من حيث الرعاية أو من الناحيـة الطبية لتأخير أعراض الشيخوخة، وقد بالغ البعض في مجال الطب حيث عكفت بعض الأبحـاث لدراسـة أحوال الشيخوخة لإطالة عمر الإنسان، ولكن سنة الله ماضية في كون هذه المرحلة هي المرحلة الأخيرة من عمر الإنسان التي وصفها الله بالضعف كما وصفها بأرذل العمر. كما أن الآجال مضـروبة ومكتوبـة في اللوح المحفوظ، وهذا البحث في مجال التفسير الموضوعي يلقي الضوء على وصف هذه المرحلة من خـلال العرض القرآني لها وما أحيط بعرضها من مواعظ وعبر. حيث قمت بدراسة الآيات الواردة في ذكر هـذه المرحلة وبحثت النقاط التالية: معنى الشيخوخة، وحدودها، وحديث القرآن عن خصائص هذه المرحلة، ثم حديثه عن رعاية أحوال من بلغ هذه المرحلة، وأخيرًا بعض الفوائد المصاحبة لذكر هذه المرحلة.

المقدمـة

الحمدلله القائل في كتابه: [الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير] (الـروم ٥٤) وأصـلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، أما بعد

فلقد حث القرآن على التأمل في الكون وما فيه من مخلوقات بشـكل عـام، ثم في خلق النفس البشرية بشكل خاص للتدبر ومن ثم الاستدلال على قدرته تعـالى ثم الاتعـاظ والاعتبار بكل ما يذكر في ثنايا الآيات عن هذه النفس عبر مسيرتها في الحياة إلى أن تبعـث يوم القيامة. ولقد كان من سنة الله في خلق الإنسان أن يمر عمره بمراحل عديدة فيبدأ وليدًا ضعيفًا ثم شابًا قويًا وأخيرًا شيخًا ضعيفًا، وفي حديث القرآن عن كل مرحلة من هذه المراحل يمكن استلهام الكثير من المواعظ والعبر التي تمكننا من التعامل معها.

وسأركز الضوء في هذا البحث على آخر مرحلة من هذه المراحل وهي الضـعف الثاني (مرحلة الشيخوخة).

ولقد حظيت هذه المرحلة باهتمام كبير من الباحثين لاسيما في هذا العصر سواء من الناحية الطبية _حيث أفرد من تخصصات الطب (طب المسنين) لتـأخير ظهـور أعـراض الشيخوخة_، أو من الناحية الاجتماعية والنفسية_ للتركيز على رعاية المسنين_، وعقد في ذلك المؤتمرات والندوات، وفي هذا البحث رغبت في المساهمة في هذا الميدان بتقديم دراسـة قرآنية في مجال التفسير الموضوعي حول موضوع الشيخوخة.

وبالرغم من أن هذه المرحلة تتخذ في الأسلوب القرآني أسماء عديدة حسب الآيات القرآنية التي ورد فيها الحديث عن هذه المرحلة إلا أن هذه الأسماء في الحقيقـة أقـرب إلى الوصف منه إلى التسمية ومن هذه الأسماء:

- الكبر : لقوله تعالى: {وأصابه الكبر} (البقرة ٢٦٦).
- العجز : لقوله تعالى: {فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم} (الذاريات ٢٩).

- الضعف : لقوله تعالى: {ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة} (الروم ٥٤).

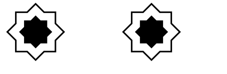
- الشيبة : لقوله تعالى: {ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة} (الروم ٥٤).

- أرذل العمر: لقوله تعالى: {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر} (النحل ٧٠، الحج ٥).

- معمر : لقوله تعالى: {وما يعمر من معمر} (فاطر ١١).

لذا آثرت استخدام (الشيخوخة) اسمًا للمرحلة لأن القرآن ذكرها اسمًا لها في معرض تعداد أطوار خلق الإنسان، قال تعالى: {ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخًا} (غافر ٦٧) بل ذكرها في معرض تعريف المخاطبين بسن المتكلم عنه كما في قول المرأتين لموسى {وأبونا شيخ كبير} (القصص ٢٣)، وقول زوج إبراهيم {وهذا بعلي شيخًا} (هود ٧٢)، وقول إخوة يوسف {إن له أبًا شيخًا كبيرًا} (يوسف ٧٨).

وقد قسمت البحث إلى المباحث التالية: الأول: معنى الشيخوخة، والثاني: حدود مرحلة الشيخوخة، والثالث: حديث القرآن عن خصائص مرحلة الشيخوخة، والرابع: حديث القرآن عن رعاية المسنين، والخامس: بعض الفوائد المصاحبة لوصف مرحلة الشيخوخة، وأخيرًا خاتمة ألخص فيها أهم نتائج البحث.



المبحث الأول

معنى الشيخوخة

الشيخوخة: مصدر من (الشيخ): والشيخ الذي استبانت فيه السن وظهـر عليـه الشيب[١]. وجمعه: أشياخ، وشيخان، وشيوخ،[٢] وقد ورد الأخير في القرآن {ثم لتكونـوا شيوخًا} (سورة غافر ٦٧) وأشياخ ورد في السنة كما في حديث (كان عمر يدخلني مـع أشياخ بدر) [٣]

وبالرغم من أن أصل استعمال هذه الكلمة في اللغة تطلق على الطاعن في السن إلا أنها أخذت بعدًا أوسع من ذلك وهو ما ينبغي للكبير من توقير واحترام، بل ما يتميـز بـه الكبير عن المراحل السابقة بكثرة التجارب والعلوم التي تسنى لـه اكتسـابها في الأطـوار العمرية السابقة.

وفي هذا يقول الراغب الأصفهاني بعد أن ساق المعنى اللغوي "وقد يعبر به فيما بيننا عمن يكثر علمه لما كان من شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه"[٤]

وعليه صارت كلمة (الشيخ) لها بُعد أوسع، للتعبير عن كبير القوم في كل مجال مثل رئيس الصناعة في كل حرفة يسمى شيخًا بالإضافة إلى هذه الحرفة فيقـال مـثلاً: شـيخ الصاغة، .....

بل هي عند الإطلاق لقب علمي، وجماع ذلك أن هذه المرحلة هي مرحلة تـراكم الخبرات الإنسانية وتكوين الحكمة والحنكة في الحياة.

وكلمة الشيخ وردت في القرآن أربع مرات سبق ذكرهـا في المقدمـة وهـي في المواضع الأربعة أتت على المعنى اللغوي حيث دلت على كبر السن.ومما ينبغي الإشارة إليـه أن استخدام كلمة (الشيخ)عند التفصيل الأصح أنها خاصة بالرجل أما المرأة فيطلق عليهـا (عجوز)كما في قوله تعالى(قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شـيخا)(هـود-٧٢). حيث فرق بين مصطلح (شيخ،عجوز)لكل من الرجل والمرأة.هذا مع جريان استعمال كـل

منهما على الآخر عند الإطلاق،قال في اللسان "العجز:الضعف،والعجوز من النساء:الشيخة الهرمة.وقال ابن السكيت:ولا تقل عجوزة والعامة تقوله".وقد وردت تسمية المرأة الكبيرة بالعجوز أربع مرات في القرآن هي: الآية السابقة،وقوله(..وقالت عجوز عقيم)(الذاريات٢٩)وقوله(إلا عجوزا في الغابرين)مرتين(الشعراء١٧١-الصافات١٣٥).

المبحث الثاني
حدود الشيخوخة

طور الشيخوخة هو المرحلة العمرية الثالثة من عمر الإنسان، والحديث عن بدء هذه المرحلة غير منضبط بسن محدد إلا أن كثيرًا ممن كتب في ذلك تحدثوا عن حيز عمري تقريبي يبدأ به.

فابن منظور في لسان العرب حين عرف الشيخ تحدث عن السن الذي يبدأ به فقال: "وقيل: هو شيخ من خمسين إلى آخره، وقيل هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره، وقيل هو من الخمسين إلى الثمانين"[٥]

وقال القرطبي عند تفسير (ثم لتكونوا شيوخًا)(غافر٦٧): الشيخ من جاوز الأربعين[٦].

وقد أورد عند تفسير قوله تعالى {أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير} (فاطر ٣٧) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة نودي أين

أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله فيه {ما يتذكر فيه من تذكر}"(٧).

وفي الحديث: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك"(٨).

على أننا نجد في القرآن الحديث عن أعمار تفوق هذا القدر بكثير وهو ما حكاه الله عن مكوث دعوة نوح في قومه كما في قوله تعالى {ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون} (العنكبوت ١٤). وهذا القدر جزء من عمره وليس كله لأنها فترة الدعوة.

ومن منطلق الأحاديث السابقة وكذلك حديث "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة"(٩) فإن المؤشر المبدئي لبدء هذه المرحلة هو سن الستين وعليه سارت كثير من الأنظمة مثل نظام اعتزال أدوار العمل الرئيسية بتحديد سن التقاعد به.

بل إن هذا السن هو المعرف به لهذه المرحلة في علم الاجتماع وبه عرفته الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ليكون تعريفًا إجرائيًا يسهل التعامل مع هذا المصطلح(١٠)، وعليه صار هذا السن في الأنظمة هو بداية الاستفادة من نظام المعاشات والتأمين الصحي وفي بعض المجتمعات يحصل المسنون على امتيازات أخرى إضافية مثل تذاكر المواصلات المخفضة وغيرها(١١).

وبالرغم من أن هناك شبه إجماع على اعتبار سن الستين بداية مرحلة الشيخوخة وتستمر إلى نهاية العمر إلا أنه ينبغي عدم ربط الشيخوخة بعمر زمني معين، ذلك لأن العمر يختلف من زمن إلى آخر فمتوسط أعمار الأقوام السابقة لأمة محمد كما رأينا في قوم نوح يختلف عن أعمار أمة محمد التي حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم متوسط المرحلة الثالثة منها – وهي الشيخوخة – ما بين الستين والسبعين، وبالرغم من أن مجال البحث في أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي يعد متوسط الأعمار فيها أقل بكثير من الأقوام السابقة في بداية الإنسانية إلا أن مجال طول العمر وقصره قد تأثر في متوسطه في العصر الحاضر عن عقود زمنية سابقة.

وقد دلت الدراسات العلمية الحديثة على أن هناك تغيرات في الهياكل العمرية وإن زيادة التطور الصحي في مجتمعات العالم قد تنتج عنه زيادة في معدلات متوسط أعمار الأفراد وهذه الزيادة أدت إلى زيادة أعداد المسنين في المجتمعات الصناعية والنامية، بل مع التقدم الصحي صارت صفات الشيخوخة قد لا تتوفر في الإنسان من عمر الستين، وعليه فقد حدد العلماء صفات جسدية وعقلية ونفسية تحدد ماهية الشيخوخة وبناء على هذا المقياس فإنه من المتوقع أن يرتفع تحديد عمر المسن إلى أعلى من الستين في المجتمعات الصناعية على الأقل لأن الفرد في الستين لا ينطبق عليه صفات السن والتي حددت على أساس مقياس خاص في المجتمع.[١٢] وقد دعت مسألة إطالة عمر الإنسان نتيجة للتغذية الجيدة والرعاية الصحية إلى أن يقترح البعض جعل سن ٧٥ أو ٨٠ بداية للشيخوخة[١٣]، بل لأجل ذلك مال كثير من الباحثين إلى تقسيم طور الشيخوخة إلى مرحلتين باختلاف مظاهر الشيخوخة ودلائلها من فرد لآخر وهما:

* الشيخوخة المبكرة أو ما يسميها البعض (المسنين الصغار): من ٦٠ – ٧٥ سنة.
* مرحلة الهرم أو (المسنين الكبار): من ٧٥ إلى نهاية العمر[١٤].

ولو تأملنا وصف القرآن لطور الشيخوخة نجد أن هذا التقسيم وارد، إذ تارة يذكر صفات إيجابية ممدوحة نلمس منها بالإضافة لوصف الضعف الاحترام والتوفير مثل قوله (وأبونا شيخ كبير)(القصص٢٣).

بينما نجد آيات أخرى لا تكاد يذكر فيها إلا الجانب السلبي لهذه المرحلة التي يتبين فيه شدة التوغل في هذه المرحلة والتي وصف فيه العمر بأرذله (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)(الحج ٥) بحيث يمكن تسمية المرحلة الثانية من طور الشيخوخة بأرذل العمر.

وإجمالاً فإن تحديد المرحلة بسن الستين ونحوه هي أرقام تقريبية واتفاقية في نفس الوقت، ليسهل الحديث عن صفات هذه المرحلة أما التحديد المنطبق فلا مبرر علمي له ليكون نهاية مرحلة وبداية أخرى فالفروق بين الذين في الستين والذين في السابعة والخمسين

أو الثالثة والستين – على سبيل المثال – تكاد تكون غير ملاحظة[١٥] والقرآن ذكـر هـذا الطور بخصائص وصفات أهله لا بتحديد منضبط لا يتخلف فمتى ما توفرت هذه الصـفات دخل الإنسان هذه المرحلة فنتعرف في المباحث التالية على هذه الخصائص.

على أنه ينبغي التنبيه إلى أن تقسيم حياة الإنسان إلى مراحل في ضـوء الخصـائص البارزة لكل مرحلة لا يعني أن كل مرحلة قائمة بذاتها لا تشترك مع المراحل السابقة بحيـث ينتقل الإنسان فجأة إلى المرحلة الأخرى بل حياة الإنسان بمثابة سلسلة متصلة الحلقات كل حلقة تؤدي إلى الحلقة التالية بحيث تتداخل دوائر الحلقات المتبانية بعضـها في بعـض بـل وتتفاعل معها، وكل حلقة من حلقات النمو لا تلغي الحلقات السابقة بل تتضمن كل حلقة جميع الحلقات السابقة.[١٦]

كما ينبغي التنبيه على أنه مهما تقدم العلم الحديث في نظريات الإعمار التي اهتمت بموضوع: هل يمكن التحكم أو تغيير سرعة الإعمار وبالتالي هل بالإمكان مد فترة العمـر ؟ وذلك بالانشغال بدراسة مسببات الإعمار ونتائجه[١٧]، إلا أن نتائج تلك البحوث محدودة الأثر ولا تغير في الإطار العام لهذه المرحلة باعتبارها نهاية مطاف العمر كما لا تخـرج عـن الأجل المكتوب في اللوح لكل إنسان، قال تعالى: {.. وما يعمر من معمر ولا يـنقص مـن عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير} (فاطر١١).

۞ ۞ ۞

المبحث الثالث

حديث القرآن عن خصائص مرحلة الشيخوخة

تتصف هذه المرحلة عن غيرها من المراحل العمرية السابقة بالكثير من الخصائص التي لفتت نظر الأطباء والأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين لتدبر هذه المرحلة وجعلتهم يفردونها بمؤلفات وأبحاث مستقلة وقد تحدث القرآن عن كليات هذه الخصائص التي تتبين من تدبر الآيات الواردة في ذلك. ويمكن تقسيم هذه الخصائص إلى الآتي:

أولاً الخصائص الجسدية :

توصف مرحلة الشباب في عمر الإنسان أنها مرحلة القوة المحفوفة بضعفين ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة.

قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} (الروم ٥٤).

لكن يلاحظ في وصف ضعف الشيخوخة مفارقة عن وصف ضعف الطفولة حيث عطف عليه كلمة (شيبة) وذلك للإيماء إلى أن هذا الضعف لا قوة بعده وأن بعده العدم حيث إن الشيب نذير الموت بعد ذلك(١٨)، لا أن هذا سيتحول إلى قوة كما حصل في ضعف الطفولة.

والمتأمل في حال الشيخوخة تتبين له أوجه الضعف التي لا تقبل التحول إلى قوة ومن ذلك.

١) ضعف العظام: تشكل التغيرات الطارئة على عظام الإنسان أهم علامات التحول لهذه المرحلة، قال تعالى: {قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًا} (مريم ٤).

والوهن: الضعف[١٩]، ومن بلاغة الآية أن أسند الوهن إلى العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى ما وراءه وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن[٢٠].

كما يلاحظ في بلاغة وصف ضعف هذه المرحلة أنه وحد العظم لأنه يدل على الجنس ولو جمع لكان قصد آخر وهو أنه لم يهن بعض عظامه[٢١].

وبالجملة فإن العظام تغدو أقل صلابة واحتمالاً ويخف وزنها مع سنوات العمر، وقد ثبت طبيًا أن عظام الإنسان تبلغ الذروة في سن الخامسة والثلاثين ثم تأخذ في الضمور والتناقص بمعدل ثابت هو ٢٪ سنويًا للرجال أما المرأة فإن معدل فقد العظام يصل إلى ١٪ سنويًا خصوصًا بعد انقطاع الطمث[٢٢].

والنتيجة النهائية هي ضعف العظام في الشيخوخة، ومن مظاهر وهن العظام ما يلي:

* تنحني القامة ويقصر طول المسنين بسبب وهن العظام الذي يصيب العمود الفقري على وجه الخصوص، فينحني العمود الفقري خاصة في منطقة الصدر[٢٣].

* ومن أمراض العظام الشائعة في كبار السن: مرض هشاشة العظام أو نقص صلابة الهيكل العظمي نتيجة لفقد مادة العظام عامًا بعد عام، ومن آثارها أن المصاب بها عرضة للكسور عند التعرض لأي ارتطام وأكثر العظام عرضة للكسور: عظام الرسغ والفخذ والظهر.

وقريب من هشاشة العظام: لين العظام الذي يحدث نتيجة فقد عنصر الكالسيوم الذي يكسب الهيكل العظمي الصلابة[٢٤].

* ومن أمراض العظام أيضًا في مرحلة الشيخوخة ما يصيب المفاصل من التهابات وتيبس مما يسبب الاحتكاك بين نهايات العظام[٢٥].

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: {وقد بلغت من الكبر عتيًا} (مريم ٤). قال ابن قتيبة: أي يبسًا[٢٦]، وقال غيره من العُتى بضم العين مصدر عتا العود إذا يبس[٢٧].

* كما يلحق بالعظام أيضًا الأسنان وبه فسر قتادة (وهن العظم مني) قال: (شكا

ذهاب أضراسه) [٢٨]، وهو الواقع إذ أن الإنسان مع مضي الزمن في مرحلة الشيخوخة تسقط أضراسه، هذا بالإضافة لشيوع التهابات اللثة التي تؤثر على الأنسجة المحيطة بالأسنان على نحو يسمح باختراق البكتريا لها وإضعافها ثم سقوطها، وتوجد صلة بين هذا المرض ومرحلة قابلية العظم للكسر حتى أن الأطباء الذين يشخصون وجود أحدهما يكتشفون عادة وجود الآخر[٢٩]، أما ما يتبقى من الأسنان فإنه يظهر أشد بروزًا لتراجع اللثة من فوق عنق الأسنان، وكل هذا يؤثر على مخارج الحروف عند الكلام الذي يصبح بطيئًا وأقل وضوحًا[٣٠].

٢] الشيب:

وهو تحول لون الشعر عن لونه الطبيعي إلى البياض.

ويعد الشيب أكثر العلامات استخدامًا للدلالة على دخول الإنسان العمر الثالث وهو الشيخوخة ولذلك اقترن ذكره مع الانحدار للضعف في وصف مراحل العمر عندما قال تعالى: {ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة}[٣١] (سورة الروم ٥٤).

والتفسير العلمي للشيب هو غياب الحبيبات الصبغية التي تعطي الشعر مظهره الأسود ولكنها مع السن تختفي المادة السوداء أو الملونة بها[٣٢].

وقد يحدث أحيانًا الشيب في وقت مبكر قبل دخول هذه المرحلة لأسباب وراثية أحيانًا أو لكثرة الهموم التي يمر بها الإنسان إذ أن ذلك له تأثير على حدوث الشيب ولو لم تدخل مرحلته كما قال تعالى واصفًا تأثير أهوال يوم القيامة: {فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شيبًا} (المزمل ١٧)، لكن الغالب اقتران الشيب بمرحلة الشيخوخة كما ذكرنا في آية سورة الروم. قال قيس بن عاصم (الشيب خطام المنية) [٣٣]، وقد بدا هذا واضحًا في شكوى زكريا حاله إلى ربه واصفًا كبر سنه {واشتعل الرأس شيبًا} (مريم ٤)، ولنا في أسلوب التعبير عن الشيب في الآية تأمل حين وصف شيب الرأس بأبلغ وصف، قال أبو حيان واصفًا بلاغة الآية في إبراز المعنى: "شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في

الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزًا ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة"[٣٤].

ومع الشيخوخة لا يتحول لون الشعر فقط وإنما قد يسقط أحيانًا، ويكثر الصلع وبشكل عام فإن حويصلات شعر الرأس عند كل من الرجال والنساء تخف ابتداء من سن الخمسين من٦١٥ إلى ٤٨٥ حويصلة في السنتيمتر المربع الواحد كما يسقط الشعر مع الشيخوخة من أجزاء الجسم الأخرى[٣٥].

٣) انقطاع الحيض عند المرأة:

من أعراض تلك المرحلة بالنسبة للمرأة انقطاع الحيض ومنه سمي ذلك السن بسن اليأس استنادًا إلى قوله تعالى: {واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن} (الطلاق ٤).

وذلك في سياق الحديث عن عِدَد المرأة حسب الوصف الذي يلحقها حال الطلاق والتي فيها المرأة التي لا تحيض لكبر سنها[٣٦].

وقد ثبت علميًا أن انقطاع الحيض يصاحبه نقص في إفراز بعض الهرمونات الأنثوية الذي يؤدي نقصه إلى الشيخوخة بينما يساعد وجوده على حيوية المرأة وفوتا.

٤) ضعف القدرة على الإنجاب:

يرتبط الإنجاب بالقدرة الجنسية ارتباطًا مباشرًا، والوظيفة الجنسية شأنها شأن بقية وظائف الجسم الحيوية لابد أن تتأثر بمرور السنين فيدركها التباطؤ والتناقص مع الوقت بمايؤثر على حدوث الإنجاب بشكل مباشر[٣٧]، وتختص المرأة بالذكر بظاهرة انقطاع الحيض الذي يرتبط بالإنجاب.

وعدم القدرة على الإنجاب سمة من سمات هذه المرحلة حتى صار حدوثه في هذه المرحلة من الخوارق التي تعجب منها الأنبياء فكيف بمن دونهم.

ومن الشواهد القرآنية التي تبرز هذا المظهر من مظاهر الشيخوخة ما حدث من البشارة بالولد لإبراهيم عليه السلام وزوجه في حال الكبر، وكذلك ما حدث لزكريا عليه السلام.

أما بشارة إبراهيم بالولد في حال الكبر، فيقول الله تعالى فيها: {وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتا ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد} (هود ٧١ – ٧٣).

وقال تعالى: {ونبئهم عن ضيف إبراهيم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} (الحجر ٥١-٥٦).

وقد تكرر في الآيات السابقة النص على التعجب من الإنجاب في هذه المرحلة ففي النص الأول نجد أن امرأة إبراهيم قالت (يا ويلتا) وهذه العبارة في معناها دعاء بالويل وتستعمل في التفجع لشدة مكروه يدهم النفس ثم استعملت بعد في عجب يدهم النفس وهي كلمة تخف على أفواه النساء[٣٨]. ولم ترد بها الدعاء على نفسها بل للتعجب من أمر البشارة[٣٩].

وكان موطن العجب أن كل من الزوج والزوجة قد طعنا في السن {ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا} بل قال القرطبي: "... وقيل أنها عرضت بقولها (وهذا بعلي شيخًا) أي عن ترك غشيانه لها"[٤٠].

وقد كان الإنجاب في هذه المرحلة من الخوارق والمنح الربانية لأهل هذا البيت خصوصًا، لا قاعدة عامة، ولذا كان رد الملائكة {قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد}، حيث تعجبوا من عجبها ثم بينوا لها أن رحمة الله عليهم متكاثرة وبركاته متوالية متعاقبة من النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات[٤١].

ولذا كان يعدها إبراهيم من النعم الكبرى التي كان يذكرها ويحمد الله عليها عندما قال {الحمدلله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء} (إبراهيم ٣٩).

فإن المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم ولأن الولادة في تلـك السـن العالية كانت آية لإبراهيم(٤٢).

وقد ذكر هذا في حق زكريا أيضًا حيث تعجب من بشارة الله لـه بالولد بـالرغم من أنه تضرع إلى الله طالبًا الولد حال كونه قد بدت عليه علامات الكبر والضـعف مـن شيب ووهن عظم، قال تعالى {ذكر رحمت ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداءً خفيًا، قـال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًا، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًا، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل لـه من قبل سميًا، قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيًا، قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا}. (مريم ٢-٩).

وقال تعالى أيضًا : {قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء} (آل عمران ٤٠).

فلما كانت عادة خلق الإنسان ألا يحدث منه الإنجاب في هذا العمر، فـإن زكريـا عليه السلام استفهم من ربه كيف حدثت هذه البشارة بالولد وهو على هذا الحال فـأخبر عن نفسه بالكبر والعتو فيه أيضًا.

والعتى كما قال القرطبي وغيره: النهاية في الكبر واليبس والجفاف(٤٣).

وهذا من شأنه عادة أن لا يحدث معه الإنجاب، قال سيد قطب: "وإنه ليثق بالوعد ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه، وهـي

حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان: الذي لا يملك أن يغفل الواقع فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله: وهنا يأتيه الإجابة عن سؤاله بأنه هين على الله سهل ويذكره بمثل قريب في نفسه: في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن وهو مثل لكل حي ولك شيء في هذا الوجود(٤٤).

وخلاصة القول أن موضع الشاهد من القصتين هو النص على التعجب من حدوث الإنجاب في هذا السن وبالتالي فإن الوضع الطبيعي السائر عادة بين البشر هو أن القدرة على الإنجاب تضعف تدريجيًا كلما طعن الإنسان في هذه المرحلة إلى أن تتوقف.

وخلاصة القول في العلامات الجسدية للشيخوخة هو أن هذه المرحلة توصف بالضعف كما عبر عنه النص القرآني {ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة} فالإنسان في هذه المرحلة يضعف جسمه باعتبار ضعف العظام والمفاصل والعضلات، وكذلك تكالب الأمراض عليه مما يجعله غير قادر على خدمة أسرته بل خدمة نفسه أيضًا كلما طعن في السن أكثر.

وهذا ما عبرت عنه المرأتان اللتان لقيهما موسى عن سبب مباشرتما لعمل السقيا عوضًا عن الأب، قال تعالى: {... قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير} (القصص ٢٣).

قال ابن عطية: أي لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه وأنما لضعفهما وقلة طاقتهما لا يقدران على مزاحمة الأقوياء(٤٥).

وهذا المعنى مستفاد أيضًا من قوله تعالى {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابا إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون} (البقرة ٢٦٦).

حيث عبر عن دخول مرحلة الشيخوخة (بالإصابة) كأنه قصده فأضربه كمرض

ونحوه.

وفيه إشارة للضعف العام الذي محصلته عدم القدرة على القيـام بشـأن الذريـة الضعفاء، بل عدم القيام بحاجته في ظل المثل المضروب في الآية للمنفق المرائي أو المنفق المان بصدقته الذي لا يستطيع الحصول على أجر هذه النفقة التي بذلها.

ثانيًا الخصائص العقلية:

تتأثر القدرات العقلية لدى المسن بتقدم العمر شأنا في ذلك شأن الظواهر الجسمية والمرضية التي تعتري المسن، ولا شك أن هذا التأثر يتم بانحدار تدريجي يصل في أشد صوره إلى المرحلة التي سماها القرآن بـ (أرذل العمر).

قال تعالى: {ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يـرد إلى أرذل العمـر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا...} (الحج ٥).

وقال: {والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعـد علم شيئًا إن الله عليم قدير} (النحل ٧٠).

وهاتان الآيتان تتناول إيغال المسن في الزمن بمعنى أنها تتحدث عن الطور الثاني من مرحلة الشيخوخة حسب تقسيم كثير من العلماء، وهي المرحلة التي سماها القرآن بـأرذل العمر. وهذه التسمية لها ظلها على كثير من خصائص المسنين فيها، فإن أرذل: تفضيل مـن الرذالة ومعناه: أردأ وأدون وأضعف[٤٦]، ويلاحظ في آية سورة الحج أن أرذل استعملت في مقابل (الأشد) لمرحلة الشباب والأشد أفضل من الشد ومعناه كما قال الزمخشري: كمـال القوة والعقل والتمييز[٤٧]، كما عبر عن دخول مرحلة الأشد بالبلوغ، أمـا مرحلـة أرذل العمر فعبر عنها بالرد (ومنكم من يرد) دون البلوغ أو ما يرادفها من المعـاني كالوصـول ونحوه للإيذان بأن بلوغ هذه المرحلة هو رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة كقولـه: {ومن نعمره ننكسه في الخلق} (سورة يس ٦٨)، ولا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم الـذي يشبه الطفل في نقصان العقل والقوة[٤٨]. وتنكيسه في الخلق: قلبه وجعله على عكـس مـا

خلقه أولاً وهو أنه خلقه على ضعف في جسد وخلو من عقل وعلم ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال إلى أن يبلغ أشده وتستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسه في الخلق فيتناقص حتى يرجع في حال شبيه بحال الصبا في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من الفهم[٤٩]، كما قال عنه في وصفه {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا} (سورة النحل ٧٨).

ولو عقدنا مقارنة بين حال الطفولة وحال الهرم لوجدنا تشابهًا كبيرًا، يتناسب أن يعبر معه بالرد، إلا أن الطفولة لم تسم بأرذل العمر كما هو الحال في الشيخوخة، قال ابن عطية: لأن الأخيرة لا رجاء بعدها أما الطفولة فهي بداية والرجاء معها متمكن مع النمو[٥٠].

ولو أردنا تركيز الحديث على القدرات العقلية التي من أهمها التذكر والإدراك فإنا نجد النص القرآني يعبر عنها بأبلغ تعبير {لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا}.

فإن لام التعليل الداخلة على (كي) مستعملة في معنى الصيرورة[٥١]، وهذا ما يبين الفرق بين الطفل والهرم من أن الطفل يتقدم بالتعلم والاكتساب سعيًا إلى الاستقلال والقدرة (الرشد) أما الهرم فإن الصيرورة تعني في حقه أن كل يوم يضاف إلى رصيد حياته يرتد به إلى مزيد من الفقدان لما تعلم واختزن من قبل وهو (الذاكرة) المعبر عنه بـ (من بعد علم) مع عجز كامل عن اكتساب أي جديد وهو (الإدراك) المعبر عنه بـ (يعلم) [٥٢].

قال سيد قطب واصفًا هذا التعبير الحادث في هذه المرحلة: "فبعد العلم وبعد الرشد وبعد الوعي وبعد الاكتمال إذا هو يرتد طفلاً ... طفلاً في حافظته فلا تمسك شيئًا وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئًا طفلاً في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة لأنه ينسى أولها قبل أن يأتي على آخرها.." [٥٣].

ومن الملاحظ أن أحوال المسنين تختلف بعضها عن بعض ويرجع ذلك إلى عدة عوامل:

١- المرحلة العمرية: إذ أن تنقل المسن بين طوري الشـيخوخة الأول والثـاني – الذي عبر عنه القرآن بأرذل العمر –انتكاس تدريجي يبلغ أوجه في آخر المراحل فالمسـن في سن ٦٥ يختلف عنه في سن ٩٠ .

٢- الفروق الفردية العقلية بين المسنين في مرحلة الشباب – كالعلماء- فأصحاب القدرات العقلية العالية في مرحلة الشباب في الغالب أقل تدهورًا لقدراتهم العقلية وأبطأ ممن هم أقل.

فقد أظهرت الدراسات والبحوث أن النشطين ذهنيًا كالعلماء أظهـروا تـأخرًا في انحدار الذكاء لديهم كما كانت سرعة التدهور أبطأ من غيرهم – مـالم تتـدخل أعـراض مرضية في ذلك – فتأخر انحدار الذكاء لدى العلماء بسبب أن هؤلاء كـانوا أعلـى مـن المتوسط في قواهم العقلية منذ بداية حياتهم فيتأخر تبعًا لـه الانحدار في مرحلة الهرم[٥٤].

٣- الاضطرابات العضوية التي تصيب المخ خاصة والتي تسمى بخرف الشـيخوخة وهي نوعان: الأول نمط (الزهيمر) والذي يسمى أيضًا الخلـل الأولي للخلايـا العصـبية، وثانيهما نمط الأوعية الدموية وهو اضطرابات ينشأ عن حدوث جلطات متعددة في الدم تمنع وصوله إلى المخ[٥٥].

ولعل العامل الأخير منها هو أكثر العوامل تأثيرًا على القدرات العقلية للإنسـان في هذه المرحلة خصوصًا أن تلك الاضطرابات المرضية لا تكاد تحصل إلا في هـذه المرحلـة. وأعراضها يصدق عليها الوصف القرآني للقدرات العقلية لهذه المرحلة (لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) بإيجاز معجز.

ومما يفسر ويعرض المظاهر التي يصدق عليها وصف الآية ما كشفت عنه البحوث الحديثة من حقائق، وهي أن الاضطرابات المخية العضوية قد تكون علاماتها خفيفة أو عميقة وقد تظهر ببطء، أو بسرعة في خمسة تغيرات تصاحبها هي:

١- عجز الذاكرة: والذي ينتج عنه الفشل في تسجيل الأحـداث أو الفشـل في

الاحتفاظ بما تم تسجيله، أو العجز عن الاسترجاع الاختياري من الذاكرة.

٢- العجز العقلي المعرفي والذي يظهر في صورة فشل المسن في فهم الحقائق أو الأفكار، والعجز عن التفاعل مع المشكلات البسيطة (كالمشكلات الحسابية الروتينية) والفشل في اكتساب سلوك جديد وتعلمه بسبب اضطرابات الذاكرة مع سيطرة النمطية والقصور الذاتي ويظهر ذلك في صورة تكرار الاستجابة حتى وإن كانت لا تتناسب مع المثير أو الموقف، كما يتسم النشاط العقلي بالتفكير الحسي الحركي والتفكير العيائي الشبيه بتفكير الأطفال.

٣- العجز الشخصي الاجتماعي والذي يتمثل في صعوبة فهم المواقف الشخصية ووضع الخطط واتخاذ القرارات والعجز عن معرفة هوية الأشخاص الآخرين، ويزيد الموقف حدة الاضطرابات اللغوية والإدراكية والحركية المصاحبة لذلك.

٤- العجز عن تحديد الاتجاهات ويتمثل في الخلط في تقدير الزمان والمكان مع ظهور الخلط الزماني أولاً.

٥- العجز الانفعالي ويتمثل في التحول من الانفعالية الشديدة إلى التبلد الانفعالي ويتم هذا التحول بسرعة وبدون سبب ظاهر(٥٦).

وهذه التغيرات الخمسة تكشف لنا عن الإعجاز القرآني في وصفه لهذه المرحلة فهو انتكاس لأطوار النمو المبكرة وفقدان للقدرة على التعلم، والذاكرة هي وعاء التعلم.

وبالطبع لا يظهر الأشخاص المسنون هذه العلامات الخمسة معًا وفي وقت واحد، كما أن بعض هذه العلامات قد يكون أشد من غيره وبعضها قد يكون لبعض الوقت(٥٧).

وهذه التغيرات الخمسة التي أبرزتنا نتائج البحوث قد ضمنها المفسرون أقوالهم في تفسير قوله: (لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا).

قال الزمخشري: "ليصير نسّاء بحيث إذا كسب علمًا في شيء لم ينشب أن ينساه ويزول عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك من هذا فتقول فلان فما يلبث لحظة

إلا سألك عنه"(٥٨).

وقال الكلبي: (لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئًا)، وقيل لكيلا يستفيد علمًا وينسى ما علمه) (٥٩).

وأكثر الأمور إيلامًا على الإنسان هو التناقص العقلي لقدراته إذ العقل هو الأمر الذي تميز به الإنسان عن سائر المخلوقات، ولذا جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من جملة الأمور التي كان يستعيذ بالله منها هو الاستعاذة من هذه المرحلة (أرذل العمر) التي يحدث فيها التناقص العقلي، ففي حديث أنس بن مالك قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ يقول: اللهم إني أعوذ بك من الكسل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من البخل"(٦٠). وفي حديث سعد بن أبي وقاص: اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر"(٦١).

ومن المسائل المطروحة في هذه الآية عند المفسرين: هل وصف أرذل العمر من ذهاب العقل ونحوه يشمل كلا من المسلم وغير المسلم، أم أن الآية في غير المسلمين، فيرى الرازي مثلاً أن هذا ليس في المسلمين حيث قال: "والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر إلا كرامة على الله تعالى، ولا يجوز أن يقال في حقة إنه يرد إلى أرذل العمر، والدليل عليه قوله {ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} (سورة التين ٥-٦). فبين تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا إلى أسفل سافلين، وقال عكرمة: (من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر) (٦٢)...."(٦٣).

والأصح – والله أعلم – أن الآية عامة حيث تناولت وصف لمرحلة عمرية للإنسان من حيث هو إنسان، وكذلك الحال في غيرها من الآيات التي دعت إلى التفكر في خلق الإنسان وما يمر به من مراحل يتعلق بها الكثير من العبر والمواعظ. وشاهد ذلك في الواقع كثيرًا، وكم قرأنا في تراجم العلماء والمحدثين عبارة: اختلط في آخر عمره، وتغير بأخره.

أما وصف الرذالة فهو متعلق بالمرحلة العمرية باعتبار ما يعتري الإنسان فيها من

ضعف ونقص، لا أنها وصف للإنسان باعتبار ديانته، أما الآية المستشهد بها في سورة التين فقد ورد في تفسير (أسفل سافلين) أنه في النار[٦٤]، وهناك من فسره بأرذل العمر إلا أن الاستثناء الوارد في الآية على قول غالب المفسرين[٦٥] أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال صحتهم وشبابهم فلهم أجر غير ممنون بعد هرمهم كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل[٦٦]، لا أنه لا يصيبهم ما ورد وصفه لهذه المرحلة. أما قول عكرمة فلا يعني امتناع حصول هذا الوصف للمسلم ولكنه قد يعني أن الله يحفظ القرآن إذا اختلط الحافظ له فلا يقع هذا الخلط في القرآن[٦٧].

ثالثًا الخصائص النفسية:

إن التعبير القرآني عن دخول مرحلة الشيخوخة بالرد في آيتي النحل والحج (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)، أو التعبير بالتنكيس في سورة يس (ومن نعمره ننكسه في الخلق)(يس٦٨) يدل على مشابهة بين حال الإنسان في مرحلة الطفولة وحاله في الشيخوخة، وقد ذكرنا في النقطة السابقة المشابهة العقلية ونذكر هنا المشابهة في الحالة النفسية.

والمتأمل لوصايا القرآن للأبناء تجاه الوالدين في حال الكبر نجدها تعكس الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان في هذه المرحلة، قال تعالى: {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا...} (الإسراء ٢٣-٢٤).

فبر الوالدين واجب في كل مراحل عمر الأبوين ولكن في مرحلة الكبر يتأكد لعدة أمور منها العجز الجسدي الذي سبق الحديث عنه، ومنها الحالة النفسية التي نحن بصدد الحديث عنها وتلك الحالة تتخذ عدة مظاهر نذكر منها:

١) مشابهة المسن في انفعالاته الطفل فكما أن الطفل يحتاج إلى رعاية ومعاملة خاصة تتناسب مع مرحلته فكذلك الوالدان في هذه المرحلة يحتاجان لمثل هذه المراعاة فتأثرهما للكلام الموجه لهما في هذه المرحلة غير تأثرهما لما كانا شابين والأمور التي تفرحهما أو

تغضبهما غير ما كانت في شبابهما.

ومما يذكره علماء النفس أن انفعالات الشخص في هذه المرحلة لا تتناسب مع المثير لها فقد يحزن حزنًا شديدًا أو يفرح فرحًا كبيرًا لأمر صغير، كما أن كلمة نابية تصدر من الابن لأبيه على سبيل المثال تحدث أثرًا في هذه المرحلة أكثر بكثير مما تحدثه نفس الكلمة في مراحل سابقة(٦٨).

كما يذكر الأطباء المتخصصون في طب المسنين أن سن الشيخوخة يقل فيه الانضباط الشخصي ويترك المسن عواطفه على سجيتها وتظهر الصورة الحقيقية للفرد كما لم يسمح لها بالظهور من قبل. فيجد المسن نفسه غير مستطيع أن يمسك لسانه، ولا أن يسيطر على مشاعره، ويتضح ذلك في تغير سلوكه، قد يصير أكثر أنانية، أو تافهًا قليل الإدراك والتفكير، وقد تزداد شكوكه في كل شيء إن كان شكاكًا بطبعه، يزداد بخل البخيل، ويزداد حرصه على المال حتى وإن كان ثريًا غير محتاج(٦٩).

ولذا حث القرآن الأبناء على القول الكريم وتجنب أي كلمة أو أي فعل يدل على التذمر لأن وقعه على الآباء في مرحلة الكبر أعظم بكثير منه على الشباب لضعف الحالة النفسية، فكيف إذا كانت المثيرات للعواطف قوية ومحزنة فهي على الإنسان عامة قوية والمسن بشكل أكبر وأقوى ولعل ضعف العواطف وقلة التحمل من المسن هي السبب في الاقتراح المقدم من إخوة يوسف ليوسف لما أراد أخذ أخيهم بسبب وجود صواع الملك في رحله عندما قالوا: {قالوا يا أيها العزيز إن لنا أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين} (سورة يوسف ٧٨).

فقدرة المسن ليست كقدرة الشاب في احتمال الأحزان والمفاجآت المحزنة. حيث حاولوا استدرار العطف بذكر المرحلة العمرية للأب (إن له أبًا شيخًا كبيرًا). ومما يصدق ذلك أعني تأثر الكبير بالأخبار المحزنة أعظم من تأثر الشاب أنه لما لم تفلح محاولات إخوة يوسف في استنقاذ أخيهم والرجوع به إلى أبيه، ولما شرحوا له ما حصل بتفصيل وهم

صادقون في هذه المرة بخلاف المرة الأولى حدث الأثر العظيم لهذه الصدمة وهو ابيضاض عيني الأب حزنًا على ابنه: {قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا إنه هو العليم الحكيم، وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم} (يوسف ٨٣-٨٤).

بينما كان الوقع عليه أخف عند فقد يوسف مع أن محبته له أعظم وذلك لما كان شابًا حيث قال في تلقي الخبر {وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون} (يوسف ١٨).

٢) ومن المظاهر النفسية التي يعاني منها المسنون وينبغي وضعها في اعتبار الأبناء في رعايتهم لآبائهم في الكبر: شعور المسن بالعزلة والاغتراب وهي حالة نفسية تجعل المسن يشعر بأن هناك حاجزًا نفسيًا يفصله عن الآخرين ويشعر بعدم انتمائه إليهم، ويرجع ذلك إلى رحيل عدد من أبناء جيلهم الذين يشاطرونهم الذكريات والقيم والأعراف ويشاطرونهم ماضيهم بحلوه ومره، بالإضافة إلى عيش المسن وحده حيث ينفصل عنه الأبناء المتزوجون في السكن فيعيش وحيدًا، ويزداد ذلك لو كان هؤلاء الأبناء لا يتعاهدونهم بالزيارات المتكررة، أو كان المسنون ليس لهم أبناء على قيد الحياة.

ولعل أشهر بيت شعر يصف هذا الشعور قول لبيد بن ربيعة الذي عاش مائة وعشرين سنة:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت وحدي كالبعير الأجرب

ويقول الآخر واصفًا هذه المرحلة وقد عاش مائة وأربعين سنة:

ما رغبتي في آخر العيش بعدما ... أكون رقيب البيت لا أتغيب

إذا ما أردت أن أقوم لحاجة ... يقول رقيب حافظ أين تذهب

فيرجعه المزمى به عن سبيله ... كما رد فرخ الطائر المتربب(٧٠)

وهذا يعكس دور الأبناء في الاحتراز في طريقة التعامل مع الوالدين المسنين (وقـل لهما قولاً كريمًا) و (وصاحبهما في الدنيا معروفًا) و (واخفض لهما جناح الذل من الرحمـة) فمهما رأى من تصرفات غريبة أو متعبة فينبغي أن يلزم سلوك الإحسان والرحمة المقتضـية للذل لا الكبرياء، والاحترام والتوقير لا الاستهزاء.

ومن خصائص هذه المرحلة النفسية أيضًا:

٣] الشعور بالملل واليأس:

والمسن يزداد ملله في هذه المرحلة بسبب الضعف الحاصل لـه الذي اصبح يعيقه عن ممارسة أنشطته اليومية حتى البسيط منها كالمشي للمساجد مثلاً. بل قـد يتعـدى إلى الشعور بآلام كثيرة بسبب أمراض هذه المرحلة مما قد لا يجدي معه علاج فيشعر أن مقبـل الأيام ليس بأحسن من ماضيها(٧١)، وقديمًا قال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

سئمت تكاليف الحياة ومن ... يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم(٧٢)

وقد أورد أبو حاتم في كتابه (المعمرون) الكثير من أبيات الشعر التي تصـف هـذا الشعور عند المسنين مما يعكس عمومية هذه الصفة عند كثير منهم.

وقد يمتد هذا الشعور إلى تمني الموت عند البعض مع أنه منهي عنـه كمـا ورد في الحديث "لا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسـيئًا فلعلـه أن يستعتب"(٧٣)، وقال "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لابد متمنيًـا للمـوت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي"(٧٤). ولعل ما يخفف أثر هذا الشعور ويقلل من تداعياته رعاية الأبناء لآبائهم والتخفيف من هذا الشـعور سواء من الحالة النفسية بعمل بعض البرامج التي تخفف من الملل واليـأس، أو مـن ناحيـة المواعظ الدينية التي تشعره بفائدة طول العمر بالنسبة للمؤمن من ناحية اكتساب المزيد من الحسنات كما ورد في الحديث أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير قال: مـن طـال عمره وحسن عمله"(٧٥).

٤) ومن المظاهر أيضًا: الإحساس بالعجز والسلبية التامة، ففي المراحل المتأخرة من مرحلة الشيخوخة وخاصة مع فقد القوى العقلية يصبح المسن بين يدي أبنائه أو من يرعاه كالطفل بين يدي والديه يتلقى العناية ولا يتدخل فيما يجري حوله يأكل ما يقدم له ويلبس ما يعطى وكل ذلك لإدراكه بالعجز التام في القيام بتحصيل حاجاته إلا من قبل هذا الذي يرعاه فازدياد الضعف الجسدي ينعكس على ازدياد الضعف النفسي في الانقياد التام، ولذا يؤكد الشرع حسن الرعاية وحسن التعامل مع الوالدين في هذه المرحلة.

وبالطبع فليس كل المسنين كذلك بل قد تتدخل بعض الأمراض النفسية التي تغير في تشكيل التصرفات وردود الفعل من سلوك عدواني ونحوه.

❖ ❖ ❖

المبحث الرابع
حديث القرآن عن رعاية المسنين

من محاسن التشريع الإسلامي أنه اعتنى بكل أحوال الضعف البشري سواء كان ضعفًا طبيعيًا من أصل الخلقة البشرية كضعف مرحلتي الطفولة والشيخوخة، أو ضعفًا طارئًا لفئات من المجتمع بسبب ظروف وأحوال خاصة مرت بهم كالفقير وابن السبيل وغيرهم. فشرع لها التشريعات التي تكفل رعايتها وحمايتها والمحافظة على حقوقها من جميع الجوانب[(٧٦)]، قال تعالى: {وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين} (النمل ٧).

ومن حكمة الله تعالى أنه جعل قوة الشباب محفوفة بمرحلتي ضعف، ضعف أول نشأ منه وضعف ثاني يصير إليه {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} (الروم ٥٤).

وأوكل إلى الإنسان في مرحلة القوة رعاية الضعفين الأول والثاني مـع اخـتلاف الأدوار ففي رعاية الأطفال تكون الرعاية موكلة إلى الشباب وهم آباء، أما الضعف الثـاني فرعايتهم موكلة إلى الشباب وهم أبناء لهؤلاء الشيوخ.

هذا في الأعم الأغلب عند وجود الآباء والأبناء للقيام بذه المهام حيـث الحكـم الشرعي بالوجوب أما عند عدم وجودهم كموت ونحوه فإن الشرع أيضًا تكفل بحقـوقهم بوسائل أخرى، ويمكن الحديث عن رعاية المسنين عبر مجالين:الأول:الرعاية علـى مسـتوى الأفراد، والثاني: الرعاية على مستوى المجتمع.

وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: رعاية المسنين على مستوى الأفراد:

وهذه بدورها يمكن أن يخصص الحديث فيها على فئة خصـها القـرآن بواجـب الرعاية وهم الأبناء، ثم يعقبها الحديث عن واجب الرعاية على باقي أفراد المجتمع.

١) رعاية المسنين من قبل أبنائهم:

تتجلى أعظم صور الرعاية من قبل فئة الأبناء، لأن ذلك هو الأصـل في التركيبـة الاجتماعية، إذ الأبناء هم من تلقوا رعاية هذين الأبوين لما كانوا صغارًا محتاجين، والآن هم شباب أقوياء، فمع مرور الزمن تنعكس الأدوار بناءً على التغير الناتج في صفات كل فئـة فالضعف الأول ارتقى إلى القوة، والقوي انحدر إلى الضعف.

وبر الوالدين في الشرع أمر عظيم حث عليه الشرع بشكل عام لكنه فصل أحواله بدقة عند الحديث عن الوالدين في حال الكبر كما ورد في قوله تعالى: {وقضـى ربـك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف

ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا، ربكم أعلم بكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورًا} (سورة الإسراء ٢٣- ٢٥).

والمتأمل في هذه الآيات يجد أنا قد رسمت الأسس التي ينبغي مراعاتها في رعاية المسنين كما تبين الأمور الباعثة لهذا العمل، ونستنتج من هذه الآيات عدة أمور:

١- الحكم الشرعي لبر الوالدين: الوجوب فهو ليس محض تفضل من الأبناء على الآباء وإنما هو وجوب شرعي ويتجلى ذلك في قرن الإحسان بالوالدين بعبادة الله التي هي صلب هذا الدين.

كما عبر عن الأمر بالقضاء وكلمة (قضى) تخلع على الأمر معنى التوكيد، وأنه مما أمر الله به أمرًا جازمًا وحكمًا لازمًا(٧٧).

ونظير ذلك اقتران شكر الوالدين بشكر الله {أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير}(لقمان١٤) وكذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور..." (٧٨).

حيث ذكر عقوق الوالدين بعد الشرك بالله.

ومن أوجه التجانس بين الأمرين أن الله هو الخالق فاستحق العبادة لأنه أوجد الناس، ولما جعل الله الأبوين مظهر إيجاد الناس أمر بالإحسان إليهما فلما تجانست العلة وهي سبب الوجود ناسب العطف مع المغايرة في الأمر فالله سبحانه هو الموجد الحقيقي فكانت العبادة أما الوالدان فليس منهم الإيجاد الحقيقي بل الإيجاد بالسبب فاستحقا الإحسان(٧٩).

- يتأكد الحكم الشرعي لبر الوالدين في حال كبر السن وفي هذه الحالة لا يكفي رعاية أحد الأبوين حتى يسقط الحكم عن الآخر فالذي يبقى على قيد الحياة إلى هذه المرحلة من الأبوين يلزم بره ورعايته (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) كما لا يكون

اجتماعهما سببًا للاعتذار عن التقصير في الرعاية لأن الأوامر المرتبة في الآية كانـت علـى الحالتين دون إحدى الحالات.

٢- رسم منهج لرعاية المسنين ويمكن تأملها من خلال ما يلي:

أ) قوله (عندك) تفيد مباشرة الأبناء للخدمة الجسدية الكاملة بمعنى سكنى الوالدين عند الابن وهذا يقتضي عدة أمور منها.

- خدمة التغذية التي قد تستدعي لونًا خاصًا من الطعام حسب الحالة المرضـية التي لا يخلو منها المسن.
- خدمة النظافة وقضاء الحاجة التي قد يتردى حال المسن إلى عدم قيامه بنفسه فيها.
- خدمة التنقل خصوصًا إذا بلغ العجز مبلغه في ذلك.
- الرعاية الصحية ومتابعة علاجات الوالدين ومواعيد الأطبـاء إذا اسـتدعى الأمر ذلك.

وقد كان جماع هذه العناية ملخص في قوله (فلا تقل لهما أف) فإن الأف كلمة تدل على أن تضجر الأبناء في مباشرة هذه الخدمة واردة بل هي غالبة إذا لم يتحل الابن بأخلاق الإسلام وهدي القرآن خصوصًا في الحالات الشديدة منها، ولشدة احتمالية حصول ذلـك يبادر السياق بالنهي عن التضجر مستخدمًا أشهر أسلوب يتبادر حصـوله في مثـل هـذا الموقف، والملاحظ أن مثل هذه الخدمات يباشرها الأبناء مع أبنائهم – الأطفال – ومع ذلك لم يرد في القرآن التأكيد على الوصاية بهم لأن تلك الخدمة تندفع بالفطرة والأمر المركوز في الفطرة ينساق إليه بدون تكلف.

كما أن رعاية الأطفال تختلف في أن الوالدين يرعيان أطفالهما برغبة ومتعـة مـع النظرة المستقبلية المتفائلة تجاههم بعكس الأمر بالنسبة لرعاية الكبير الذي لا يتم غالبًا برغبة ومتعة وإنما أداء للواجب وحفظًا لحق الوالدين، وبينما يتقدم الأطفال في نموهم مـا يخفـف

العبء على والديهم ويشجعهم لما يرونه من نتائج لرعايتهم نجد الأمر على عكس ذلك بالنسبة لرعاية الكبار فالأمور تتدهور والجهد المبذول في الرعاية يزداد، كما يزيد الأمر صعوبة للكبار مقارنة بالأطفال اختلاف الأحجام فالطفل يحمل بين اليدين ويستطيع المشي بعد أن يكبر قليلاً بينما لا يماثله الكبير الذي قد يكون مقعدًا ولا يستطيع شخص حمله بمفرده(٨٠).

وكل هذا يسبب التضجر ممن يباشر تلك العناية، لذا حفظ الله حق الوالدين في هذا السن أن أوجب تلك الرعاية مع محاولة ضبط النفس عما يصدر عنها من تضجر باستحضار الأجر والثواب الأخروي بالإضافة إلى تذكر الإحسان الذي تلقاه سابقًا منهما في مرحلة الطفولة (كما ربياني صغيرًا).

ب) مراعاة الحالة النفسية:

ورد في الآية ارتقاء في الأسلوب من النهي عن التضجر إلى النهي عن النهر.

فإن النهي عن التأفف يفيد حالة التضجر في نفس الابن الذي يتولى الرعاية، والتضجر في حد ذاته لا يلزم أن يرافقه سباب أو شتم أو أوامر، أما النهر والانتهار فهي كما قال ابن عطية "إظهار الغضب في الصوت واللفظ"(٨١). وقال الراغب: "النهر: الزجر بمغالظة"(٨٢). فالنهر يتعدى التضجر إلى التعبير عنه بأسلوب ظاهر وكلمات مسموعة، فنهى الله تعالى عنه حتى لو كان المقول عبارة عن أوامر تحمل مصلحة الوالدين فإنه ينبغي أن لا تخرج مخرج الغضب ورفع الصوت أو الإهانة.

والملاحظ أنه قد ورد في القرآن مرارًا الحث على الإحسان للوالدين والبر بهما ولكنها كانت بعبارات عامة كما في قوله {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا} (النساء ٣٦)، وقوله {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا} (الأنعام ١٥١)، وقوله {ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا} (العنكبوت ٨) وغيرها.

أما في تخصيص حال كبر سن الوالدين فقد أتى التفصيل لشدة حاجتهما لهذا البر من جهة ولكون حالتهما النفسية كما سبق أن وصفنا مرحلة الشيخوخة أن العواطف تضعف فيصبح الأبوان لا يحتملان سبأبا وشتمًا أو نترًا فالشاب أقدر على امتصاص الإهانات فضلاً عن الرد عليها أما المسن فإنه لا يستطيع الدفع عن نفسه لشدة حاجته للآخرين مع ضعف عواطفه التي قد تجعله ينهار عند مثل هذه المواقف، ولذا شدد الله تعالى على تلك المعاني النفسية ولم يكتفِ بالأمر بالخدمة وتلبية الحاجات الحسية بل تعداها إلى تلبية الحاجات المعنوية، ولذا أردف النهي عن النهر بالأمر بالقول الكريم {ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا} وهي مرتبة أعلى من الكف عن التضجر والنهر إذ أن الكريم من كل شيء: الرفيع في نوعه ففي إكرام القول لهما قمة السمو في التعامل الفعلي والقولي فالقول الكريم الجامع للمحاسن من اللين وجودة المعنى وتضمن البر، ويندرج تحت هذا ما إذا أراد الولد تأدية نصح لأحد أبويه أو تحذيره مما قد يضر به أن عليه أن يؤدي ذلك بقول لين حسن الوقع[٨٣]. ومجمل الأوامر الثلاثة السابقة في التعامل اللفظي القولي، وكلها لها أعظم الأثر في الحالة النفسية للوالدين الكبيرين.

جـ) جماع الأمرين السابقين معبر عنهما بقوله: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة}.

فإنه السياق يصف حال الأبناء في رعايتهما للوالدين الكبار أنا حال تبلغ في شدة الخدمة ومراعاة وصول إلى أقصى صورها – حتى المستقذر منها – بالتواضع الذي يبلغ حد الذل لهما، والذل لا يكون إلا مع انتفاء أي إيذاء قولي أو تضجر من هذه الخدمة.

وكل ذلك لإزالة وحشة نفوس الأبوين الكبيرين لما صارا في حاجة إلى معونة الأبناء.

وقد كان إبراز هذا المعنى بتشبيه الابن بيئة الطائر عند إرادة الهبوط بعد أن كان مليئًا بالزهو وقت التحليق في السماء، فكذلك الابن عند الوالدين ينبغي أن يختلف حاله

معهم عن حاله مع بقية الناس في تقصد الاستكانة والذلة لهم، وقد يكون التشبيه من باب: كأنه قيل للولد اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك.

د) ربط الأبناء في رعايتهما للأبوين الكبيرين بالله وذلك في موضعين:

١- حين أمرهم بعدم الاكتفاء برحمتهم للآباء بالطريقة العملية أثناء الخدمة بل يتعدى ذلك إلى الأمر بالدعاء لهما برحمة الله لهما {وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا} إذ أن ذكر رحمة العبد مناسبة للانتقال إلى رحمة الله فرحمته أوسع ورعايته أشمل وهو أقدر على جزائهما بما بذلاه تجاه الأبناء من رعاية(٨٤).

وقد حملت عبارة الدعاء عدة معاني:

* أنه دعاء بالمكافأة المناظرة لما بذله الأبوان للأبناء لما كانوا صغارًا.

* أنه يوصي بدف من أهداف الدعاء وهو سؤال الله لهما التخفيف عنهما بعض مشاق هذا العمر من أمراض وآلام ومتاعب واكتئاب نفسي وغيره لأن رحمة الله كلمة واسعة تعم خيري الدنيا والآخرة ومما يشمله خير الدنيا رفع البأس المصاحب لهذا العمر.

* دعاء الأبناء للآباء من الدعاء المستجاب إذ أن الأمر به في هذا الموطن إيماء لذلك خصوصًا أن الله عد هذا الدعاء من عمل الأبوين الذي لا ينقطع بالوفاة كما في الحديث "إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"(٨٥).

* اقتران هذا الدعاء بذكر بعض الأسباب الجالبة للمعونة في هذه الرعاية وهو تذكر معروف الأبوين على الابن حال عجزه وضعفه وحاجته لغيره {كما ربياني صغيرًا} قال القرطبي: "خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما"(٨٦)، ويلاحظ أن التذكير بهذه الحقيقة في الآية جاء بذكره في مقول القول بالدعاء المذكور (وقل رب...) حتى يستمر استذكار العبد لهذا الأمر كلما

دخلته الغفلة والنسيان لذلك.

٢- أن رعاية الأبوين الكبيرين عبادة كسائر العبادات يحاسب الإنسان علـى مـا تكنه النفوس من إخلاص في الخدمة أو تكاسل عنها وقد بدا ذلك في ختام تلك الآيات بقول {ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورًا}.

حيث كانت الآية تذييلا للأمر بالإحسان للوالدين لما اقتضى الأمر اختلاف أحوال المأمورين باعتبار اختلاف حالات الوالدين من حيث الحاجة للخدمة وما قد يترتب عليه من تقصير مقصود أو غير مقصود فأوكل الأمر في نهاية المطاف بعد تفصيل أحوال الرعايـة إلى علم الله بالخفايا وإذا أوكل أي أمر إلى علم الله دل على الجزاء بحسبه، ولذا فقـد جـاءت بعض أقوال المفسرين تحكي بعض الأمثلة لمن يصدر منه ما ظاهره العقوق القولي مع صـلاح النية فهذا يدخل في حيز العفو والغفران في الآية، قال سعيد بن جبير: "هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه في نيته وقلبه أن لا يؤخذ به – وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك فقـال: ربكم أعلم بما في نفوسكم"[(٨٧)].

كما أن الآية تفيد ضرورة المبادرة إلى التوبة والاستغفار كلما حصـل تقصـير في الخدمة شأنه كشأن التقصير في سائر العبارات لأن كلمة (الأوابين) مشتقة من (الأوب) وهو الرجوع الذي يحمل معنى التوبة، قال الراغب: "والأواب كالتواب وهو الراجع إلى الله بترك المعاصي وفعل الطاعات"[(٨٨)]، كما حملت الوعد بالمغفرة على التقصير إذا صدقت النيـة في حسن الرعاية، قال ابن عاشور: "وقد جمعت الآية مع إيجازها تيسيرًا بعد تعسـير مشـوبًا بتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيبًا"[(٨٩)].

ولم تكن آية الإسراء وحدها التي تحدثت عن رعاية الآباء عند الكبر - وإن كانت أشملها وأوسعها تفصيلاً – حيث وردت نصوص أخرى حملت بعض تلك المعاني ومنها قوله تعالى {ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير} (القصص ٢٣).

والمعنى أنه لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه[٩٠].

ولذا قامت بناته بخدمة الأب بتولي أمر السقاية عنه بالرغم من صعوبة هذا العمل وأنه لا يقدر عليه في العادة إلا الرجال الأقوياء، قال الرازي في السياق ما يدل على ضعفهما عن السقي من وجوه:

" ١) أن العادة في السقي للرجال، والنساء يضعفن عن ذلك، ٢) ما ظهر من ذود الماشية على طريق التأخير، ٣) قولهما: (حتى يصدر الرعاء)، ٤) انتظارهما لما يبقى من الماء، ٥) قولهما: (وأبونا شيخ كبير)، ودلالة ذلك أنه لو كان قويًا حضر، ولو حضر لم يتأخر السقي، فعند ذلك سقى لهما قبل صدور الرعاء وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المعتاد[٩١] ".

وعليه يفرع من هذه الآية الكثير من أحوال رعاية الآباء المسنين وهو قيام الأبناء بالعمل على توفير أسباب المعيشة التي كان يتولاها الآباء لما كانوا في قوتهم وشبابهم.

ومن الآيات الواردة حول موضوع رعاية الوالدين الكبيرين: {قالوا يا أيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين} (يوسف ٧٨).

وقد وردت هذه الآية في سياق أخذ يوسف لأخيه بتهمة وجود صواع الملك في رحله، وقد كان إذن الأب للإخوة بأخذ أخيهم بعد إيتاء المواثيق بالرجوع به فلما فوجئوا بهذه التهمة تذكروا حال أبيهم من عدة أمور مذكورة في قوله تعالى: {فلما استيئسوا خلصوا نجيا، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين} (يوسف ٨٠).

والشاهد هو حرصهم بصدق – في هذه المرة – على إرجاع أخيهم إلى أبيهم دون مكروه لأسباب منها مراعاة كبر سنه الذي لا يتصور معه احتمال لمفاجآت بدليل حصول ما

خافوه من الصدمة حيث ابيضت عيناه حزنًا (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم).

وقد كانت رعاية الوالدين في حال كبرها أحد صفات النبي يحيى التي امتدحه الله بها حين قال: {وبرًا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًا} (سورة مريم ١٤)، وذلك في سياق ذكر ولادته بعد تضرع أبيه زكريا أن يرزقه هذا الولد حال كبر سنه الموصوف في صدر السورة، (والبَرّ) الكثير البر، والجبار: المتكبر، وقبله وصف يحيى بقوله {وحنانًا من لدنا} والحنان: الرحمة والشفقة والمحبة[٩٢]، وكلها صفات تعكس مقدار رعايته بوالديه فهو كثير البر غير متكبر، رحيم محب.

هذا مجمل ما ورد في القرآن حول رعاية المسنين من قبل الأبناء، وقد ورد في السنة أيضًا تخصيص الوالدين الكبيرين بالاهتمام والرعاية وترتيب عظيم الأجر على ذلك. قال صلى الله عليه وسلم: "رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة"[٩٣] وقد دل الحديث أن رعاية الأبوين في حالة الكبر والإحسان إليهما سبب دخول الجنة لعظم المشقة في ذلك.

وكذلك حديث النفر الثلاثة الذين توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم حتى يفرج الله عنهم أمر الصخرة التي سدت عليهم الغار، ففي الحديث: "بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله خالصة فادعوا الله بها لعله يفرجها، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرعي عليهم فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي وإنه ناء بي الشجر[٩٤] فما أتيت حتى أمسيت فوجدتما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون[٩٥] عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء ... الحديث"[٩٦].

فهذا الحديث يدل على تفاصيل دقيقة في نواحي رعاية الوالدين سواء من حيث توفير الاحتياجات الجسدية والقيام بخدمتهما في ذلك أو من الناحية النفسية حيث التكريم والتوقير عند القيام عند الرأس وعدم تقديم حاجة الأبناء على حاجتهما، كما يدل أيضًا على عظم الأجر المرتب على هذا العمل وأنه من خير الأعمال حيث اختار هذا العمل للتوسل به دون غيره من الأعمال فكان بالفعل عملاً مقبولاً للتوسل بدليل إجابة الدعوة وانفراج جزء من الصخرة.

٢] رعاية المسنين من قبل باقي أفراد المجتمع:

سبق أن ذكر أن رعاية المسنين تتجلى أعظم صورها في المجتمع في فئة الأبناء، لكن قد يحصل أن لا يكون للمسن أبناء حين يدركه الكبر لأي ظرف كان، وهنا لم يتركه الإسلام هملاً فقد يتولى رعاية المسن الكبير الزوجة إذا كانت قادرة على ذلك فهذا من حقوق الزوجية ففي قصة الثلاثة الذين خلفوا الذين قال الله عنهم: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم} (التوبة ١١٨). كان من تأديب الرسول لهؤلاء الثلاثة أن أمر الصحابة بهجرهم ثم أمرهم أيضًا باعتزال زوجاتم لكنه أذن لامرأة هلال بن أمية بخدمته لأنا جاءت فقالت: "يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا"[٩٧] فإذنه صلى الله عليه وسلم لزوجة هلال بخدمته دليل عى رحمته صلى الله عليه وسلم بهلال – رضي الله عنه باعتبار كبر سنه وحاجة هذه المرحلة للرعاية والخدمة.

وبشكل عام فكل أفراد المجتمع مطالبون بتوقير المسن وإكرامه في قول النبي صلى الله عليه وسلم "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر"[٩٨] وقوله: "ما أكرم شاب شيخًا من أجل سنه إلا قيض الله له عند سنه من

يكرمه"[٩٩] وقوله: "إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم"[١٠٠]، وفي الحديث أيضًا عن يحيى بن سعيد قال: بلغنا أنه من أهان ذا شيبة لم يمت حتى يبعث الله عليه من يهين شـيبه إذا شاب"[١٠١].

ثانيًا: رعاية المسنين من قبل مؤسسات المجتمع:

من محاسن الدين الإسلامي حثه على التكافل الاجتماعي فلا توجد فئة مستضـعفة إلا وكفل لها من يسدد هذا الضعف، والإسلام ينطلق برعاية المسنين وإكرامهم من إطارهـا الأول وهو الأسر إلى إطارها الأكبر وهو المجتمع. فالمجتمع كله مطالـب برعايـة المسـنين، فالمسن الذي قعد به العجز والضعف عن تحصيل رزقه يدخل ضمنًا مع الفقراء والمسـاكين الذين هم من مصارف الزكاة الواجبة {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعـاملين عليهـا والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله علـيم حكيم} (التوبة ٦٠).

وقد صرح في الحديث عن مصارف الزكاة أن لاحظ فيها لقوي[١٠٢].

وعليه كانت عناية المسلمين بالمسنين داخلة في إطار رعاية الفقراء والضـعفاء إذا لم يجد أحد من هؤلاء من يرعاه من قرابته. وهذه الرعاية مسئولية دينية واجتماعية ونوعًا مـن رد الجميل للفرد الذي أمضى شبابه وكهولته عاملاً في مجتمعه ثم ضعف عـن الكسـب أو السعي عندما تقدم به العمر[١٠٣]. وفي التطور التاريخي لعصور الدولة الإسلامية نجد جهـود الأوقاف التي كانت تبني الأربطة والدور لرعاية قطاع من الضعفاء لا يجـدون مـن يقـوم بخدمتهم كاليتامى والمسنين. والفقراء عامة فهي جهود فردية أو شعبية ساهمت في هذا العمل ابتغاء الأجر والثواب وكان بداية فكرة الإنشاء في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وفي عصرنا الحاضر ازدادت الحاجة لمثل تلك المؤسسات مع تعقيد الحيـاة واتجـاه المجتمع نحو التحضر والتصنيع الذي انعكس على التركيبة الاجتماعية فبعد أن كان تكـوين الأسرة على النمط الممتد فتشمل الأسرة الممتدة ثلاثة أجيال بما في ذلك إمكانيـة وجـود

أقارب يشتركون جميعًا في سكن واحد ويعنى جميع أفرادها بالمسن الذي يعيش فيها تغير هذا الوضع بفعل عوامل عديدة منها: الهجرة من الريف إلى الحضر، تغير العادات والتقاليد، والاتجاه إلى الوظائف والتصنيع بدلاً من الزراعة كل ذلك أثر في تركيبة الأسرة التي اقتصرت على الزوجين والأبناء، الذي انعكس بدوره على رعاية المسن سواء من حيث إيوائه أصلاً أو من حيث طريقة التعامل معه وتهميشه في الحياة(١٠٤).

كل ذلك استدعى من المخططين وصانعي القرار إلى العمل على إنشاء خدمات متنوعة للمسنين اتخذت نمطين من الرعاية.

١) الرعاية الإيوائية الشاملة للمسنين:

حيث تقوم تلك المؤسسات بإيواء كامل للمسن من حيث السكن والإعاشة، وتوفير الخدمات الإضافية الأخرى مثل الرعاية الاجتماعية، والطبية، والنفسية، والنشاطات الثقافية، والرياضية، والمهنية، والترفيهية.

ومثالها في المملكة العربية السعودية دورالرعاية الاجتماعية التابعة لوزارة العمل والشئون الاجتماعية وتستقبل تلك الدور المسنين الذين تجاوزوا سن الستين الذين لا عائل لهم(١٠٥)، وهذا الظن بالمجتمع السعودي لأنه مجتمع مسلم يدرك كل فرد فيه واجبه الديني تجاه والديه.

٢) الرعاية الاجتماعية المفتوحة للمسنين:

وهي مراكز نهارية تقدم بعض الخدمات للمسنين يستطيعون خلالها ممارسة بعض الأنشطة التي تناسبهم وتشبع رغباتهم من برامج دينية واجتماعية وثقافية وصحية، وتتوفر فيها المكتبات، وصالات الألعاب الرياضية، والتدريب على بعض الحرف، وتقدم فيها بعض الوجبات الخفيفة ومثل هذه الأنشطة من شأنها أن تخرج المسن من عزلته أثناء انشغال الأبناء عنه في وظائفهم، ثم يعودون بعد ذلك إلى أسرهم وأبنائهم وبيئتهم الطبيعية التي يشعرون

فيها بقيمتهم الاجتماعية.

وهذا النمط من الرعاية مناسب جدًا للمجتمعات المسلمة التي تحقق خدمة المسن دون تعطيل واجب بر الأبناء بهم.

ومثال ذلك في المملكة العربية السعودية مركز الأمير سلمان الاجتماعي الذي يقوم بهذه الخدمة النهارية للمسنين – رجالاً ونساءً[١٠٦].

تعقيب: رعاية المسنين في مجال التشريع والعبادات

من محاسن الدين الإسلامي أنه بعد تشريع الأحكام والعبادات أنه جعل لأهل الأعذار عندما يوقفهم العذر عن تأدية ما عليهم وضعا خاصا يتلاءم مع قدراتهم، ومن الآيات الواردة في تأصيل هذه القاعدة قوله تعالى: {لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها} (البقرة ٢٨٦)، وقوله {لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها} (الطلاق ٧).

ومن أهل الأعذار والذين روعي عذرهم في ذلك المسنون نذكر على ذلك بعض الأمثلة بإيجاز – إذ التفصيل مجاله كتب الفقه -.

١) التنقل بين مراحل الكفارة إذا كانت على الترتيب إذا لم يستطع القيام بالرتب الأعلى كما في كفارة الظهار، قال تعالى: {فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم} (المجادلة ٤)، وقد ورد في رواية سبب النزول: "... قال: فليصم شهرين متتابعين، قالت: فقلت والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ..."[١٠٧].

وكذلك الأمر في سائر الكفارات يراعى فيها حال المسن من حيث الاستطاعة.

٢) الترخيص للمرأة المسنة بوضع الحجاب بقيود منها عدم التبرج، وعدم الرغبة في الزواج، قال تعالى: {والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم} (النور ٦٠)، والقواعد: هن

اللواتي قعدن عن الحيض والتزوج[١٠٨].

٣) مراعاة السن في كيفية أداء بعض العبادات حيث يدخل في عموم المرضى:

أ- في الصلاة، فقد ورد في حديث عمران بن حصين "صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب"[١٠٩].

ب- في الصوم {.. فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين} (البقرة ١٨٤)، حيث أتيح له الفطر مع القضاء إن كان يستطيع ذلك أو يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا لم يتمكن من القضاء، قال ابن عباس في قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين)، "من لم يطق الصوم إلا على جهد فله أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينًا، والحامل والمرضع والشيخ الكبير والذي به سقم دائم"[١١٠]. وفي رواية أخرى عنه "كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينًا، والحبلى والمرضع إذا خافتا"[١١١]. وقد كان ابن عباس يقرأ الآية (يطوقونه) قال: يتجشمونه، يتكلفونه"[١١٢].

جـ - عدم إطالة الإمام للصلاة مراعاة لتنوع أحوال المصلين الذين منهم الكبير كما ورد في حديث أبي هريرة: "إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء"[١١٣].

۞ ۞ ۞

المبحث الخامس
بعض الفوائد المصاحبة لوصف
مرحلة الشيخوخة في القرآن

المتأمل للآيات التي تحدثت عن هذه المرحلة العمرية يجد أنها بالإضافة للناحية الوصفية لهذه المرحلة يجد أنها سيقت للدلالة على كثير من الفوائد الأخرى المتعلقة بموضوع الآية والسياق الذي وردت فيه. ومن ذلك:

١) الاستدلال بمرحلة الشيخوخة على قدرة الله على البعث لكون هذه المرحلة حلقة من حلقات خلق الإنسان الذي تطور من التراب وتنقل عبر مراحل إلى أن وصل لتلك المرحلة مع تشبيه تلك المراحل بمراحل النمو في النبات، كما في قوله تعالى: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} (سورة الحج ٥)، وكذلك قوله في سورة النحل: {والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا إن الله عليم قدير} (النحل ٧٠).

فإن قدرة الله على خلق الإنسان من العدم ثم مروره بهذه المراحل سواء كانت مراحل التكوين وهو جنين، أو مراحل العمر من طفولة لشباب لشيخوخة تصل به إلى أرذل العمر كله دليل على أن القدرة على إعادته بعد الموت أولى، هذا من جهة ثم التركيز على وصف مرحلة الشيخوخة بقوله (لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) قال القرطبي: في سورة النحل والمقصود: الاحتجاج على منكري البعث أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه، وقال الزجاج "ان منكم من يكبر ويسن حتى يذهب عقله خرفًا فيصير بعد أن كان عالمًا جاهلاً ليريكم من قدرته أنه كما قدر على إماتته وإحيائه أنه قادر على نقله من

العلم إلى الجهل"[١١٤].

٢) بيان سعة علم الله فإنا صفة كمال لا يعتريها النقص بوجه من الوجوه كما يحصل في الإنسان فإنه لو أوتي علمًا كثيرًا – على قلته – فإنه معرض للاضمحلال والنسيان بل والتوقف عن اكتساب المزيد وذلك في مرحلة الشيخوخة ويتبين ذلك في قوله {والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرزل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا إن الله عليم قدير} فختام الآية بقوله (إن الله عليم قدير) بعد ذكر النقص في علم الإنسان في هذه المرحلة لبيان صفة الكمال لله سبحانه وتعالى.

٣) الحث على إحسان العمل باعتبار هذه المرحلة ختام للحياة التي هي دار العمل، قال تعالى في سياق محاورة أهل النار في سبب إذاقتهم العذاب {وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير} (فاطر ٣٧).

والتعمير: إعطاء العُمُر، والعمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة[١١٥].

و (النذير) المذكور في الآية جاء في تفسيره عدة أقوال منها: الشيب[١١٦] باعتباره مقدمة الشيخوخة - التعمير - وقد تمثل هذا المعنى الشعراء كما في قول أحدهم:

وقائلة خضب فالغواني ... نوافر عن ملاحظة القتير

فقلت لها المشيب نذير عمري ... ولست مسودًا وجه النذير[١١٧]

والمقصود من الآية إجمالاً استفهام توبيخ وتوقيف وتقرير[١١٨]، نتج منه إقامة الحجة على المفرطين لما مد الله في أعمارهم إلى هذا العمر الذي حدده كثير من المفسرين بسن الستين[١١٩] الذي هو أول أعتاب الشيخوخة، ولهذا ترجم البخاري في كتاب الرقاق "باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله تعالى {أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير}، ثم ساق حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلّغه ستين سنة"[١٢٠]. والإعذار إزالة العذر والمعنى أنه لم

يبق لـه اعتذار كأن يقول: لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكنه منه، وإذا لم يكن لـه عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل لـه فلا ينبغي لـه حينئذ إلا الاستغفار والطاعـة والإقبـال علـى الآخـرة بالكلية[١٢١].

وقال ابن بطال: "إنما كانت السنون حدًا لهذا لأنا قريبة من المعترك وهو سن الإنابة والخشوع وترقب المنية فهذا إعذار بعد إعذار لطفًا من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة وإن كانوا فطروا علـى حب الدنيا وطول الأمل لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليتمثلوا ما أمروا بـه مـن الطاعة وي جروا عما نوا عنه من المعصية"[١٢٢].

قال ابن الجوزي: "العجب ممن يقول أخرج إلى المقابر فاعتبر بأهل البلى، ولو فطن أنه مقبرة، يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها، خصوصًا من قد أوغل في السن، فـإن شـهوته ضعفت وقواه قلت، والحواس كلت، والنشاط فتر والشعر أبيض، فليعتبر مما فقد، وليستغن عن ذكر من فقد، فقد استغنى بما عنده عن التطلع إلى غيره"[١٢٣].

ولذا كان من المستقبح صدور أعمال تدل على الإعراض ممن بلغ هذا السن فقـد ذم الله امرأة لوط لما أعانت قومها على نبي الله فكان من مواطن الذم لها لما ذكـر وقـوع عذاب عليها أن ذكرها بسنها كما في قوله تعالى: {كذبت قوم لوط المرسلين ... قـال إني لعملكم من القالين. رب نجني وأهلي مما يعملون. فنجيناه وأهلـه أجمعـين. إلا عجـوزًا في الغابرين} (الشعراء ١٦٠-١٧١).

قال أبو حيان (فلما كانت زوجته مندرجة في الأهل وكان ظاهر دعائه دخولهـا في التنجية، وكانت كافرة، استثنيت في قوله (فنجيناه وأهله...) ودل قوله عجوزًا: على أنا قد عسيت في الكفر ودامت فيه إلى أن صارت عجوزًا، ومن الغابرين صفة أي من الباقين مـن لداتا وأهل بيتها) [١٢٤].

٤) التأكيد على بر الوالدين عند دخولهم هذه المرحلة لشدة احتياجهم. وقد أشرنا لذلك في وصف الحالة النفسية للمسن، وفي مبحث حديث القرآن عن رعاية المسنين.

الخاتمة

تبين من البحث ما يلي:

* سنة الله في حياة الإنسان أن يمر عمره بمراحل ثلاث يبدأ وليدًا ضعيفًا ثم شابًا قويًا ثم شيخًا ضعيفًا لكن المرحلة الثالثة أخذت حيزًا أكبر في الحديث عنها في القرآن لكثرة ما يتعلق بها من مواعظ وعبر.

* مرحلة الشيخوخة ليس لها حد منضبط بسن معينة تعرف به فغالب حديث القرآن عنها بالخصائص والصفات متى ما توفرت دخل الإنسان هذه المرحلة وإن كانت السنة قد بينت الحدود التقريبية وهو سن الستين.

* باعتبار خصائص هذه المرحلة يمكن أن تقسم هذه المرحلة إلى طورين: شيخوخة مبكرة وهي التي تبدأ فيها نذر الشيخوخة من شيب ونحوه ثم شيخوخة متأخرة وهي التي تتدهور فيها حالة الشيخ حيث وصف القرآن هذا الطور بأرذل العمر.

* تميز الأسلوب القرآني في وصف أعراض الشيخوخة بأسلوب دقيق لاسيما ما ورد في قصص الأنبياء أثناء مرورهم بهذه المرحلة مثل: زكريا وإبراهيم. حيث يمكن اعتبار ما ورد فيها كليات يدخل تحته الدقائق التي توصل إليها الطب في بيان أعراض الشيخوخة وأمراضها.

* بيان عظمة الدين الإسلامي وسماحته، ورعايته لأحوال الضعفاء الذين منهم المسنين وذلك في عدة أمور:

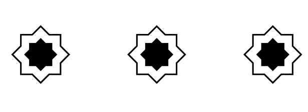
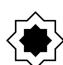
- في جانب العبادات حيث خفف الله عنهم وراعى قدراتهم في هذه المرحلة باختصاصهم ببعض الأحكام في الصلاة والصيام والكفارات وغيرها مما يتضح منه جانب التخفيف.

- الحرص على حقوقهم في جانب الخدمة والرعاية فلم يترك رعايتهم لعامة الناس

بحيث تكون مظنة ترامي المسئولية، ولكنه أوكل رعايتهم إلى الجهة المسئولة فعلاً عن هـذه الرعاية وهم الأبناء الذين سبق أن تلقوا مثلها لما كانوا صغارًا.

- رسم منهج دقيق لهذه الرعاية من قبل الأبناء يتجلى فيه السلوك الفعلي والقـولي وتراعى فيه الحالة النفسية للمسن مع التركيز على جانب الترغيب والترهيب لضمان إحسـان العمل في هذا الميدان.

* تسليط الضوء على هذه المرحلة أكثر من غيرها من مراحل العمـر خاصـة في جانب الإيمان والعمل الصالح لأن العمر محط الأعمال والشيخوخة نذير انتهاء الوقت المتاح للعمل حيث يعقبه الموت ومن ثم البعث والحساب والجزاء، وبالتالي ينبغي أن يغلـب علـى الإنسان في هذه المرحلة الاشتغال بالعمل الصالح.


الحواشي والتعليقات

(1) ابن منظور: لسان العرب (٣١/٣) (شيخ)، (دار صادر، بيروت)، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٢٧٠ (تحقيق محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة)، ابن فارس: مجمل اللغة (٥١٨/٢) (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ)، الخليل بن أحمد: العين (٢٨٤/٣) (مؤسسة الأعلمي، بيروت ط١، ١٤٠٨هـ).

(2) ابن منظور: لسان العرب (٣١/٣).

(3) الحديث أخرجه البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة (إذا جاء نصر الله) (ابن حجر: فتح الباري ٧٣٤/٨) (المكتبة السلفية).

(4) الراغب الأصفهاني: مفردات الراغب، ص ٢٧٠.

(5) ابن منظور: لسان العرب (٣١/٣) شيخ.

(6) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٣٣٠/١٥)، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ).

(7) أخرجه الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) (٤٧٧/٤) من حديث ابن عباس، (حققه محمود شاكر، دار التربية والتراث، مكة، ط٢).

(8) الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة: كتاب الزهد، باب ما جاء في فناء أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين (٥٦٦/٤) (تحقيق أحمد شاكر، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٨هـ، ط ٢)، وابن ماجه: (واللفظ له) كتاب الزهد باب الأمل والأجل (١٤١٥/٢)، (حققه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية –القاهرة)، وقال عنه الألباني: حسن صحيح (صحيح ابن ماجه ٤١٥/٢) (مكتب التربية لدول الخليج بالرياض – ١٤٠٩هـ - ط١).

(9) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر – (ابن حجر: فتح الباري ٢٣٨/١١).

(10) د/ محمد عمر باسليمان: نظام رعاية المسنين في مراكز الرعاية الصحية الأولية، ص ١٩٧. ورقة عمل مقدمة لندوة الرعاية الشاملة للمسنين الواقع والمأمول، نظمتها وزارة العمل والشئون الإجتماعية بالرياض في الفترة من ١٤-١٧/١١/١٤٢٠هـ.

(11) آمال صادق، فؤاد أبو حطب: (نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين) ص ٥٩١ (مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ١٩٩٥ – ط ٣).

(12) د/ عيسى علي السعدي: (رعاية كبار السن مسئولية مشتركة) ص ٢٩، ورقة عمل لندوة الرعاية الشاملة للمسنين الواقع والمأمول.

(13) أ. عبدالله النعيم: (رعاية المسنين من مسئوليات المتمع ودور الأسرة والمسن) ص ٧١، ورقة عمل لندوة الرعاية الشاملة للمسنين الواقع والمأمول.

(14) أ. د: إبراهيم الجوير: (المسنون بين النظريات الاجتماعية والواقع) ص ١٧٠، ورقة عمل مقدمة لندوة الرعاية الشاملة للمسنين. و د/ محمد عمر باسليمان: نظام رعاية المسنين في مراكز الرعاية الصحية الأولية. و آمال صادق، فؤاد أبو حطب: (نمو الإنسان من مرحلة الخمسين إلى مرحلة المسنين) ص ٥٩٩.

(15) أ. د عمر المفدى: (من خصائص وحاجات كبار السن النفسية)، ص ٢٤٧، ورقة عمل مقدمة لندوة الرعاية الشاملة للمسنين.

(16) يوسف أسعد: (رعاية الشيخوخة) ص ٩، (دار غريب – القاهرة – ٢٠٠٠م).

(17) د/ محمد صادق صبور: (المسنون بين الصحة والمرض) ص ٢١، (دار الشروق – القاهرة – ١٤٢١هـ - ط ١).

(18) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (١٢٨/٢١) (الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م)

(19) قال الراغب في مفرداته: ص ٥٣٥، (الوهن: ضعف من حيث الخَلق أو الخُلق).

(20) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٧٦/١١)، وأبو حيان: (البحر المحيط) (١٧٠/٦) (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ، ط٢).

(21) المرجع السابق.

(22) د/ لطفي الشربيني: (أسرار الشيخوخة مشكلات المسنين وكيفيـة العلاج) ص ٨٩-٩٢، (دار النهضة، بيروت).

(23) د/ محمد صادق صبور: (المسنون بين الصحة والمرض)، ص ٩٨.

(24) د/ لطفي الشربيني: (أسرار الشيخوخة مشكلات المسنين وكيفيـة العلاج) ص ٨٩-٩٢، (دار النهضة، بيروت).

(25) د/ لطفي الشربيني: (أسرار الشيخوخة مشكلات المسنين وكيفية العلاج) ص ٩٣، آمال صادق، فؤاد أبو حطب: (نمو الإنسان) ص ٦١٨ .

(26) ابن قتيبة: (تفسير غريب القرآن)، ص ٢٧٢، (تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ)

(27) ابن عاشور: (التحرير والتنوير) (٦٤/١٦).

(28) ذكر ذلك ابن الجوزي في زاد المسير (٢٠٧/٥)، ولم أقف على تخريجه، (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧، ط٤)

(29) آمال صادق، فؤاد أبو حطب: (نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين) ص ٦١٨.

(30) محمد صادق صبور: (المسنون بين الصحة والمرض) ص ٩٧-٩٨.

(31) آمال صادق، فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان، ص ٦١٩.

(32) لطفي الشربيني: أسرار الشيخوخة، ص ٤٨.

(33) ابن قتيبة: عيون الأخبار (٣٢٤/٢)، (دار الكتاب العربي – بيروت).

(34) أبو حيان : البحر المحيط (١٧٠/٦).

(35) آمال صادق، فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان، ص ٦١٩.

(36) وقد نزلت هذه الآية بعد سؤال أبي بن كعب للرسول: أن عِدَدًا من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال قال فأنزل الله هذه الآية، أخرجه الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) (٤٥١/٢٣) وذكره ابن أبي حاتم تعليقًا (تفسير القرآن العظيم) (٣٣٦٠/١٠).

(37) ينظر : لطفي الشربيني : أسرار الشيخوخة، ص ١٢٤.

(38) ينظر: (ابن عطية: المحرر الوجيز) (١٨٩/٩) (تحقيق المجلس العلمي بتارودانت – ١٤١١هـ) و (أبو حيان: البحر المحيط) (٣٤٢/٥).

(39) (ابن الجوزي: زاد المسير) (٣٢/٤).

(40) (القرطبي: الجامع لأحكام القرآن) (٦٩/٩).

(41) (الرازي: التفسير الكبير) (٢٦/١٨) (دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط٣)

(42) (الرازي: التفسير الكبير) (١٣٨/١٩).

(43) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨٣/١١).

(44) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢٣٠٣/٤) (دار الشروق – القاهرة – بيروت).

(45) ابن عطية، المحرر الوجيز (١٥٨/١٢).

(46) ابن الجوزي: زاد المسير ٤٦٧/٤، الرازي: التفسير الكبير (٧٤/٢٠)، ابن عاشور: التحرير (٢١١/١٤).

(47) الزمخشري: الكشاف (١٤٥/٣) (دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٧ – ط ٢).

(48) ينظر أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (١٢٦/٥)، (دار إحياء التراث العربي – بيروت).

(49) ينظر (أبو حيان: البحر المحيط) (٣٤٥/٧).

(50) ينظر ابن عطية: المحرر الوجيز (٢٠٨/١٠).

(51) ينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (٢١٢/١٤).

(52) ينظر آمال صادق، فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان ص ٧٠٩ بتصرف.

(53) سيد قطب: (في ظلال القرآن) (٢٤١٠/٤).

(54) انظر عمر المفدي: (من خصائص وحاجات كبار السن النفسية) ص ٢٥٢.

(55) آمال صادق، فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان، ص ٧٣٢، ٧٤٢.

(56) المرجع السابق، ص ٧٣٣.

(57) المرجع السابق، ص ٧٣٣.

(58) الزمخشري: الكشاف (١٤٥/٣).

(59) أبو حيان: البحر المحيط (٣٤٦/٦).

(60) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من أرذل العمر (ابن حجر: فتح الباري ١٧٩/١١).

(61) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من البخل (ابن حجر: فتح الباري ١٧٨/١١).

(62) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: (٢٢٩٠/٧) والطبري في تفسيره (٥١١/٢٤).

(63) الرازي: التفسير الكبير (٧٧/٢٠).

(64) به قال مجاهد والحسن وابن زيد، وأقوالهم أخرجها الطبري في تفسيره (٥٠٩/٢٤-٥١٠).

(65) وبه قال ابن عباس وإبراهيم، وعكرمة، وقتادة، وأقوالهم أخرجها الطبري في تفسيره (٥١٢/٢٤).

(66) ينظر تفسير الطبري (٥١٣/٢٤).

(67) من حيث الواقع المشاهد رأيت نماذج على ذلك من كون الحافظ المسن ينسى ويفقد التركيز والإدراك في كل الأمور إلا في القرآن فإنه لو أخطأ قارئ عنده فإنه يقوم قراءته وهذا يعزى – والله أعلم – إلى ما دل عليه قوله {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لـه لحافظون} (الحجر ٩).

(68) أ. د. عمر المفدى: من خصائص وحاجات كبار السن النفسية، ص ٢٥٦.

(69) د/ محمد صادق صبور: (المسنون بين الصحة والمرض، ص ١٠٧).

(70) د/ عبدالرزاق الزهراني: (بعض الخصائص الاجتماعية والنفسية للمسنين، دراسة في كتاب (المعمرين) لأبي حاتم السجستاني) ص ٤٨، (بحث مقدم لندوة الرعاية الشاملة للمسنين).

(71) أ.د. عمر المفدي: من خصائص وحاجات كبار السن النفسية، ص ٢٥٨.

(72) ينظر: الزوزني: شرح المعلقات السبع ص ٨٦ (دار صادر – بيروت).

(73) هذا جزء من حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري: كتاب المرضى: باب تمني المريض الموت، (ابن حجر: فتح الباري ١٢٧/١٠).

(74) الحديث أخرجه البخاري من حديث أنس: كتاب الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة (ابن حجر: فتح الباري ١٥٠/١١).

(75) الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي بكرة: كتاب الزهد، باب (٢٢) (٥٦٦/٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد من حـديث عبدالله بن بسر (١٩٠/٤) (دار صادر – بيروت)، و ابن أبي الدنيا في (العمر والشيب) ص ٤٦، (حققه: د/ نجم خلف، مكتبة الرشد – الرياض - ١٤١٢ – ط١).

(76) انظر: عماد زهير حافظ: منهج القرآن الكريم في رعاية ضعفاء المجتمع، ص ٢، (مطابع شركة المدينة – جدة – ١٤١٣ – ط ١).

(77) ينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (٦٥/١٥).

(78) الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي بكره، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (ابن حجر: فتح الباري ٤٠٥/١٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها (٨١/٢) (صحيح مسلم شرح النووي، دار الفكر – بيروت – ١٣٩٨ هـ - ط٣).

(79) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٦٨/١٥).

(80) أ. د. عمر المفدى : من خصائص وحاجات كبار السن، ص ٢٥٩.

(81) ابن عطية: المحرر الوجيز (٢٧٩/١٠).

(82) الراغب : المفردات، ص ٥٠٧ (نر).

(83) ينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (٧٠/١٥).

(84) ينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (٧٢/١٥)، و عماد زهير حافظ: منهج القرآن الكريم في رعاية ضعفاء المجتمع، ص ٢٠٠.

(85) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٨٥/١١).

(86) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (٢٤٤/١٠).

(87) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٢٢/١٧).

(88) الراغب: المفردات، ص ٣٠ (أوب).

(89) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٧٥/١٥).

(90) ابن عطية: المحرر الوجيز (١٥٨/١٢)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٦٩/١٣).

(91) الرازي: التفسير الكبير (٢٣٩/٢٤).

(92) ينظر ابن عطية: المحرر الوجيز (١٧/١١-١٨).

(93) الحديث أخرجه مسلم كتاب البر والصلة، باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (١٠٨/١٦)، قال النووي في معناه: أي ذل وخزي والرغم أصله لصق أنفه بالرغام وهو تراب مختلط برمل، وقيل كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه.

(94) ناء بي الشجر: أي بعد، أي لطلب المرعى (ابن حجر: فتح الباري ٤٠٥/١٠).

(95) يتضاغون: من ضغا يضغو إذا صاح وضج، (ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: (٩٢/٣) (دار إحياء التراث العربي – بيروت).

(96) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأدب باب إجابة دعاء من بر والديه (ابن حجر: فتح الباري ٤٠٤/١٠).

(97) الحديث بتمامه أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك (ابن حجر: فتح الباري ١١٣/٨-١١٦).

(98) أخرجه الترمذي من حديث أنس، د. عبدالله بن عمرو وأبي هريرة وابن عباس، باب ما جاء في رحمة الصبيان (٣٢١/٤-٣٢٢) وصححه الألباني (صحيح الجامع (١٠٣/٥) (المكتب الإسلامي – بيروت).

(99) أخرجه الترمذي كتاب البر، باب ما جاء في إجلال الكبير رقم ٢٠٢٢، (٣٧٢/٤) وابن أبي الدنيا في كتاب العمر والشيب ص ٥٣، وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٨٩٨/٣ و ٢٧٣٣/٧) (دار الفكر ١٤٠٤ – ط ١) (وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٤٢٠/٤ (دار المعرفة – بيروت) وقال: قال ابن عدي منكر وضعفه الألباني (ضعيف الجامع (٨٤/٥).

(100) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب باب في تنزيل الناس منازلهم (١٧٤/٥) (دار الحديث – بيروت، ١٣٨٨ – ط١)، وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٢٤١/٢).

(101) أخرجه ابن أبي الدنيا، كتاب العمر والشيب، ص ٥٣ .

(102) ورد ذلك في حديث عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحل الصدقة لقوي ولا لذي مِرة سوي) وفي رواية (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) والمرة كما قال الخطابي: القوة وصحة البدن الذي يكون معها احتمال الكد والتعب، والسوي: صحيح الأعضاء. والحديث أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة (٢٨٥/٢-٢٨٦)، وكذلك ورد أن رجلين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فرفع فيها البصر وخفضه ورآهما جلدين ثم قال: (إن شئتما أعطيتكما، ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب)، أخرجه أبو داود (٢٨٥/٢)، والإمام أحمد (٢٢٤/٤) والثاني: كتاب الزكاة، باب مسألة القوي المكتسب (٩٩/٥) (دار إحياء التراث العربي – بيروت) .. الحديثان صححهما الألباني (صحح أبي داود (٣٠٧/١-٣٠٨).

(103) د/ إبراهيم الجوير: المسنون بين النظريات الاجتماعية والواقع، ص ١٨٠.

(104) انظر مزيد تفصيل في دراسة د/ صالح الرميح: (واقع المسنين في المدن) ص ٢٣١ – ورقة عمل مقدمة لندوة الرعاية الشاملة للمسنين.

(105) انظر مزيد تفصيل أنظمة تلك الدور في دراسة أحمد بن عبدالعزيز الحميدي: (تجربة وزارة العمل والشئون الاجتماعية في مجال رعاية المسنين، ص ١٠٤ – ١٠٩ – ورقة عمل مقدمة لندوة الرعاية الشاملة للمسنين.

(106) انظر تفصيل خدمات المركز في دراسة أحمد بن عبدالعزيز الحميدي، تجربة وزارة العمل والشئون الاجتماعية في مجال رعاية المسنين (ملحق عن مركز الأمير سلمان الاجتماعي)، ص ١٠١.

(107) أخرجه أحمد (٤١٠/٦-٤١١)، وأبو داود: كتاب الطلاق، باب الظهار (٦٦٢/٢) وصححه الألباني بمجموع الطرق ينظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٧٣/٧). (المكتب الإسلامي – بيروت ١٣٩٩ – ط١).

(108) الراغب: المفردات، ص ٤٠٩.

(109) الحديث أخرجه البخاري : كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب (ابن حجر: فتح الباري ٥٨٧/٢).

(110) قول ابن عباس أخرجه الطبري من طريق علي بن أبي طلحة (٤٣٢/٣).

(111) الرواية الأخرى من طريق سعيد بن جبير أخرجها أبو داود: كتاب الصوم، باب من قال: هي مثبتة للشيخ والحبلى (٧٣٨/٢)، والطبري (٤٢٧/٣).

(112) أخرجه الطبري (٤٣١/٣)، وانظر المسألة بشكل عام في المغني (ابن قدامة: ١٤١/٣).

(113) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء، ابن حجر: فتح الباري (١٩٩/٢).

(114) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه (٢١١/٣) (دار عالم الكتب – بيروت – ١٤٠٨ – ط١).

(115) الراغب: المفردات، ص ٣٤٧ (عمر).

(116) وهو قول ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والطبري: انظر تفسير الطبري (٤٧٨/٢٠)، والقرطبي (٣٥٣/١٤)، قيل في تفسيره غير ذلك مثل: النبي صلى الله عليه وسلم، القرآن، الحمى.

(117) انظر: ابن قتيبة: عيون الأخبار (٥١/٤)، والقتير: الشيب أول ما يبدو منه.

(118) ينظر أبو حيان: البحر المحيط (٣١٦/٧).

(119) ورد ذلك في قول ابن عباس الذي أخرجه الطبري (٤٧٧/٢٠) وعليه اختيار كثير من المفسرين، لكن هناك من حدده بسن الأربعين كما في قول مسروق الذي أخرجه الطبري أيضًا (٤٧٧/٢٠) واختاره أيضًا معللاً ذلك بأن سن الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه وما قبل ذلك وما بعده منتقص، ولكنه علل عدم الأخذ بتحديد الستين باعتبار أن في إسناد حديث الرسول صلى الله عليه

وسلم الذي فيه تحديد الستين من يجب التثبت في نقله، لكن الحديث مخرج عن البخاري كما مضى بيانه وبالتالي فاختيار عمر الستين أصح – والله أعلم.

(120) ابن حجر: فتح الباري (٢٣٨/١١).

(121) ابن حجر: فتح الباري (٢٤٠/١٣).

(122) ابن بطال: شرح البخاري (٢٤٠/١١).

(123) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ٣١٥ (حققه ناجي الطنطاوي، دار الفكر – دمشق، ١٣٩٩ هـ - ط ٣).

(124) أبو حيان: البحر المحيط (١٦/٧).